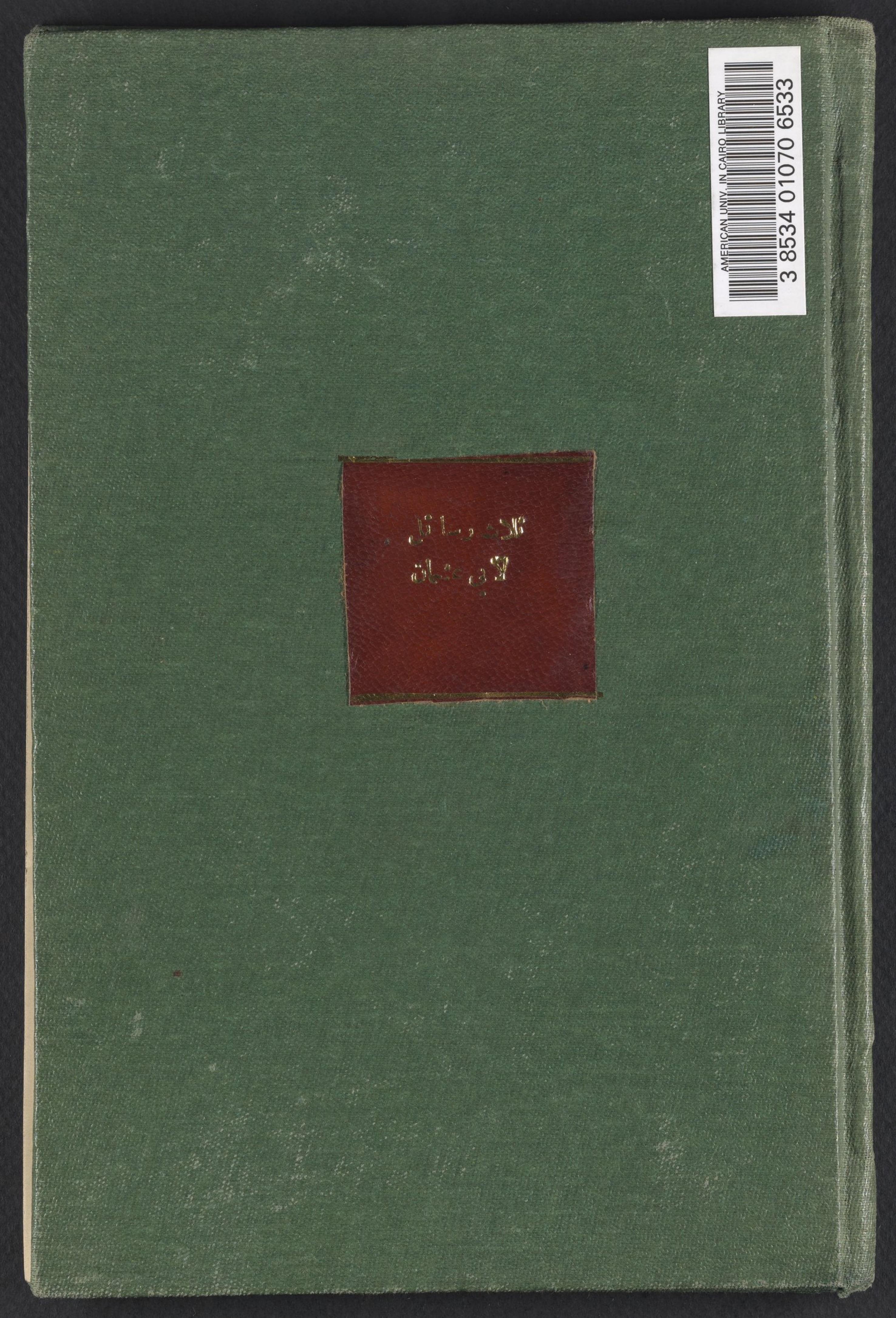
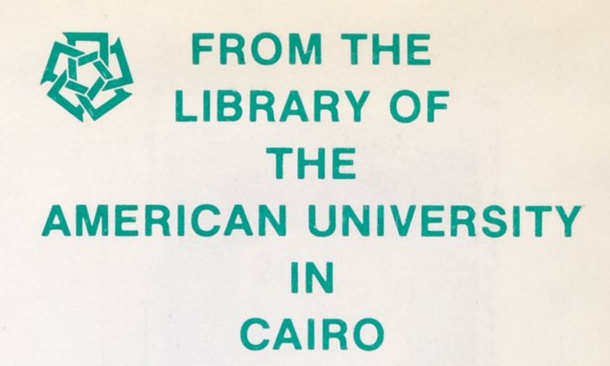


ثلاث رسائل
لأبي عثمان



ثلاث رسائل

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

الأولى - في الرد على النصارى
الثانية - في ذم أخلاق الكتاب
الثالثة - في القيان

سعى في نشره

يوشع فنكل

القاهرة

١٣٤٤

المطبعة السلفية - ومكتبتها
لصاحبيهما : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

كان أبو محمد عبد الله بن حمود الزبيدي الاندلسي مغرى بكلام الجاحظ وكان يقول :

« رضيتُ في الجنة بكتب الجاحظ عوضاً عن نعيمها »

طبقات النحاة للسيوطى ص ٢٨٢

* * *

روى الخطيب بسنده عن أبي علي الحسن بن داود أنه قال :

« فخر أهل البصرة بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل »

ذيل طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ص ١٢٦
الذي نشره (فلوغل) في ليبسيك

مُقَدِّمَةُ النَّاشِر

هذه مجموعة قيمة تشمل ثلاث رسائل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لم تطبع بعد :

الاولى رسالته فى الرد على النصارى ، والثانية رسالته فى أخلاق الكتّاب ، والثالثة رسالته في القيان .

وقد عثرنا على أصولها الخطية فأردنا أن نقوم بطبعها لما اشتملت عليه من الفوائد المهمة التاريخية والأدبية

فاما الرسالة الاولى فقد وجدناها فى مكتبة الازهر وفى مكتبة صاحب السعادة أحمد تيمور باشا في ضمن مجموعة من رسائل الجاحظ اختارها عبيد الله ابن حسان . فالمجموعة التيمورية عليها رقم ١٩ أدب ومكتوب فى آخرها:

« انتهاء الفصول التى اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة فى يوم الجمعة المبارك الموافق لثلاث خلت من شهر ذى القعدة من شهور سنة ألف وثلثمائة وخمس عشرة . وقد تم نسخها بيد العبد الحقير المعترف بالعجز والتقصير عبد أهل السنة والجماعة ، الخاضع لله بالدعاء والطاعة ، الراجى لطف ربه الغنى ، محمد ابن عبد الله بن ابراهيم الزمرانى . غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين »

ثم قال : « وقد نقلتُ هذه النسخة المباركة من نسخة تاريخها فى أوائل شهر رجب الاصم سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعمائة * كاتبها أبو القاسم عبيد الله بن على رحمه الله تعالى »

وأما مجموعة المكتبة الازهرية فعليها رقم ٦٨٣٦ ومكتوب فى آخرها :

« انتهاء الفصول التى اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو

ابن بحر الجاحظ رحمه الله . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة يوم الجمعة خامس يوم شهر محرم الحرام افتتاح سنة ١٣١٣ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية. بقلم العبد الحقير المعترف بالعجز والتقصير محمد بن عبدالله بن ابراهيم الزمرانى غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين »

والظاهر انها منقولة من النسخة التى نقلت منها المجموعة التيمورية ، لأن الكاتب لهما واحد ، والتحريف الواقع فيهما متشابه . ولا يفوتنا أن ننبه هاهنا الى أن الرسالة الاولى قد طبع منها مايقرب من نصفها بهامش الكامل للمبرد المطبوع في القاهرة سنة ١٣٢٤ ولكنه مملوء بالاغاليط . ونحن قد بذلنا الجهد في تصحيح ماوجدناه من التحريف فى المجموعتين

وأما الرسالتان الثانية والثالثة فقد وجدناهما في مكتبة نور الدين بك مصطفى في ضمن مجموعة رسائل خطية للجاحظ وغيره ورقمها عدد ١٠٠ ورسائل الجاحظ الموجودة فى هذه المجموعة مكتوب فى آخرها :

« استكتبه محمد بن خالد بن خليل الازهرى الحسيني اللاذقى النائب فى مركز ولاية الموصل غرة ذى القعدة سنة ١٣١٧ »

وأنا اسجل هنا شكرى لحضرة أمين المكتبة الازهرية الشيخ طه البشرى ولصاحب السعادة أحمد تيمورباشا ولحضرة نور الدين بك مصطفى على إذنهم لى بنقل هذه الرسائل من مكاتبهم واقدم ثنائى الخالص لصاحب المكتبة والمطبعة السلفية الاستاذ العالم الاديب محب الدين الخطيب لحسن اعتنائه وبلائه في طبع هذه الرسائل وجميل نصحه وارشاده .وأقدم شكرى أيضا لحضرتي الاستاذين الشيخ عبد الجواد سويلم والشيخ محمد صديق لاشتراكهما معى فى التصحيح وفى الاعتناء بالنقل

يوشع فنكل

﴿ ترجمة الجاحظ ﴾

من كتاب الانساب (ص ١١٨) للقاضي أبي سعيد عبد الكريم ابن أبي بكر محمد بن أبي المظفر المنصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي السمعاني المروزي الفقيه الشافعي الحافظ

قال : الجاحظ بفتح الجيم والحاء المكسورة بينهما الألف وفي آخره الظاء المعجمة. هذا لقب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري انما قيل له ذلك لان عينيه جاحظتان – ان شاء الله – حدث عن يزيد بن هارون والسري بن عبدويه وأبي يوسف القاضي. وروى عنه يموت بن المزرَّع ومحمد بن عبد الله بن أبي الدهاب ومحمد بن يزيد النحوي

***

الجاحظية بفتح الجيم وبعدها الألف وكسر الحاء المهملة وفي آخره الظاء المعجمة . هذه النسبة الى فرقة من المعتزلة وهم أصحاب أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ البصري ، صاحب التصانيف الحسنة. وكان من أهل البصرة وأحد شيوخ المعتزلة . وكان حدث بشيء يسير عن حجاج بن محمد بن حماد بن سلمة وأبي يوسف القاضي وغيرهما . روى عنه أبو بكر عبد الله بن أبي داوود السجستاني وابن اخته يموت بن المزرع. وهو كناني ... وهو مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكناني ثم الفقيمي . وكان محبوب – جد الجاحظ – أسود وكان جمالا لعمرو بن قلع

وكان فصيحاً تدل كتبه على فصاحته وملاحة عبارته . حكي أن رجلا آذاه فقال. إنك والله أحوج الى هوانٍ من كريم الى كرام ، ومن علم الى عمل ، ومن قدرة الى عفو ، ومن نعمة الى شكر »

ووصف الجاحظ اللسان فقال « هو أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يعبر عن الضمير ، وحاكم يفصل الخطـاب ، وناطق يرد به الجواب ، وشافع تدرك به الحـاجة ، وواصف تعرف به الاشياء ، وواعظ ينهى عن القبيح ومُعزٍّ يردّ الأحزان ، ومعتذر يرفع الضغينة ، وملهٍ يونق الاسماع ، وزارع يحرث المودة ، وحاصد يستأصل العداوة ، وشاكر يستوجب المزيد ، ومادح يستحق الالفة ، ومؤنس يذهب الوحشة »

وقال المبرد : دخلت على الجاحظ في آخر أيامه وهو عليل فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف من نصفه مفلوج ولو نشر بالمناشير ما أحسَّ به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه . والآفة في جميع هذا أنى قد جزت التسعين . ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخ   كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب   دريس كالجديد من الثياب

ومات الجاحظ فى المحرم سنة ٢٥٥ . والجاحظية ترى أن المعارف ضرورية طباع وليس شيء منها من أفعال العباد ، ووافق ثمامة بن أشرس فى قوله ان العباد ليس لهم فعل غير الارادة ، وهذا يوجب أن الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد من اكتساب العبد ، وأن لا يكون الزنا وشرب الخمر من اكتسابهم ، لان هذه الافعال غير الارادة . وفى هـذا إبطال الثواب على الطاعات والعقاب على المعاصي . اه

***

وفى كتاب معجم الادباء لياقوت الحموى (٦ : ٧١ ـ ٧٢) فى أثناء الكلام على الجاحظ قال : كتب الفتح بن خاقان الى الجاحظ كتابا يقول فى فصل منه : « ان أمير المؤمنين يجد بك ويهش عند ذكرك . ولولا عظمتك فى نفسه

ـ لعلمك ومعرفتك ـ لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه

ولقد كان ألقى الي من هذا عنوانه ، فزدتك فى نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك . فاعرفْ لى هذه الحال ، واعتقد هذه المنة على كتاب (الرد على النصارى) ، وافرغ منه وعجل به إلىّ ، وكن من جدا به على نفسه ، وتنال مشاهرتك . قد استطلقته لما مضى واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة ، وهذا مما لم تحتكم به نفسك . وقد قرأت رسالتك فى (بصيرة غنام[1]) ولولا أنى أزيد فى تخيلتك لعرفتك ما يعتريني عند قراءتها والسلام »

***

وفى كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبه (ص ٧١ ـ ٧٢) :

« قال أبو محمد : ثم نصير الى الجاحظ ، وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين . وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار الى أن يعمل الشيء ونقيضه ، ويحتج بفضل السـودان على البيضان . وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل عليا رضى الله عنه ومرة يؤخره . ويقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتبعه قال الجماز وقال اسماعيل ابن غزوان كذا وكذا من الفواحش ، ويجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يذكر فى كتاب ذكرا فيه فكيف فى ورقة أو بعد سطر أو سطرين

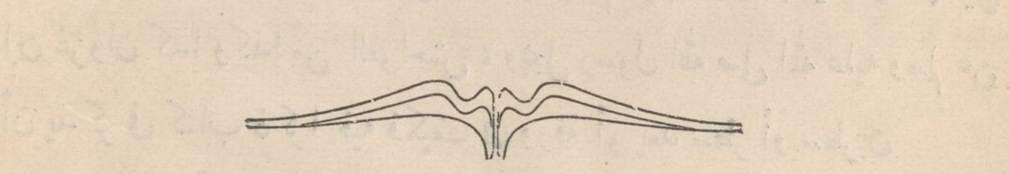
ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين فاذا صار الى الرد عليهم

(١) غنام رجل مرتد ذكره الجاحظ في مقدمة كتاب (الحيوان) فقال مخاطبا الشخص الذي وجه اليه الخطاب في صدر كتاب الحيوان ج ١ ص ٥ « ثم عبت انكاري بصيرة غنام المرتد وبصيرة كل جاحد وملحد ... الخ »

تجوز في الحجة كأنه انما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين

وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الاحداث وشرّاب النبيذ . ويستهزيء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان وذكر الحجر الاسود وانه كان أبيض فسوده المشركون وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا . ويذكر الصحيفة التي كان فيها المنزل فى الرضاع تحت سرير عائشة فاكلتها الشاة وأشياء من أحاديث أهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ودفن الهدهد امه فى رأسه وتسبيح الضفدع وطوق الحمامة وأشباه هذا مما سنذكره فيما بعد ان شاء الله — وهو مع هذا من أكذب الامة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل . ومن علم رحمك الله أن كلامه من عمله قلّ إلا فيما ينفعه ، ومن أيقن أنه مسئول عما الف وعما كتب لم يعمل الشيء وضده ، ولم يستفرغ مجهوده فى تثبيت الباطل عنده . وانشدني الرياشى :

ولا تكتب بخطك غير شيء يسرك فى القيامة أن تراه



المختار من كتاب

الردّ على النصارى

لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

المتوفَّى سنة ٢٥٥ هـ

اختارها عبيد الله بن حسّان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منّ علينا بتوحيده * وجعلنا ممن ينفي شبهة خلقه وسياسة عباده * وجعلنا لا نفرّق بين أحد من رسله * ولا نجحد كتابا اوجب علينا الاقرار به * ولا نضيف اليه ما ليس منه * انه حميد مجيد * فعّال لما يريد

أما بعد فقد قرأت كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصارى قبلكم ، وما دخل على قلوب أحداثكم وضُعفائكم من اللبس ، والذى خفتموه على جواباتهم من العجز ، وما سألتم من إقرارهم بالمسائل ، ومن حسن معونتهم بالجواب

وذكرتم أنهم قالوا ان الدليل على أن كتابنا باطل وأمرنا فاسد أننا ندّعي عليهم ما لا يعرفونه فيما بينهم ولا يعرفونه من أسلافهم ، لانا نزعم أن الله جلّ وعز قال فى كتابه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ واذ قال اللهُ يا عيسى ابنَ مريم أأنتَ قلتَ للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾ ، وانهم زعموا أنهم لم يدينوا قط بأن مريم إله فى سرّهم ، ولا ادّعوا ذلك قطّ فى علانيتهم

وأنهم زعموا أنا ادّعينا عليهم ما لا يعرفون ، كما ادّعينا على اليهود ما لا يعرفون حين نطق كتابنا وشهد نبينا أن اليهود قالوا ان عزير ابن الله ، وان يد الله مغلولة ، وأن الله فقير وهم أغنياء . وهذا ما لا يتكلم به انسان ، ولا يُعرف في شيء من الاديان . ولو كانوا يقولون فى عزير ما نحلتموه وادّعيتموه

لما جحدوه من دينهم ، ولما أنكروا أن يكون من قولهم ، ولما كانوا بانكار بنوَّة عزير أحقّ منا بانكار بنوَّة المسيح ، ولما كان علينا منكم بأس بعد عقد الذمة وأخذ الجزية

وذكرتم أنهم قالوا : مما يدل على غلطكم فى الاخبار وأخذكم العلم عن غير الثقات أن كتابكم ينطق أن فرعون قال لهامان « ابنِ لى صَرْحا » وهامان لم يكن الا في زمن الفرْس وبعد زمن فرعون بدهر طويل ، وأن ذلك معروف عند أصحاب الكتب مشهور عند أهل العلم ، وانما اتخذ صرحا ليكون إذا علاه أشرفَ على الله . وفرعون لا يخلو من أن يكون جاحداً لله تعالى أو مقراً به ، فان كان دينُه عند نفسه وأهل مملكته نفيَ الله وجحْدَه فما وجه اتخاذ الصرح وطلب الاشراف ، وليس هناك شيء ولا إله ؟ وان كان مقرّاً بالله عارفاً به فلا يخلو من أن يكون مشبهاً أو نافياً للتشبيه ، فان كان ممن ينفى الطول والعرض والعمق والحدود والجهات فما وجه طلبه له في مكان بعينه وهو عنده بكل مكان ؟ وان كان مشبّهاً فقد علم أنه ليس في طاقة بني آدم أن يبنوا بنياناً أو يرفعوا صرحا يخرق سبع سماوات بأعماقهن والاجزاء التى بينهن حتى يحاذيَ العرش ثم يعلوه . وفرعون وان كان كافراً فلم يكن مجنونا ، ولا كان الى نقص العقل من بين الملوك منسوبا . على أن الحكم قد يُقدَّم بعقول الملوك بالفضيلة على عقول الرعية

وذكرتم أنهم قالوا : تزعمون أن الله تعالى ذكر يحيى بن زكريا يخبر أنه لم يجعل له من قبلُ سَميًّا ، وأنهم يجدون فى كتبهم وفيما لا يختلف فيه خاصتهم وعامتهم انه كان من قبلِ يحيى بن زكريا غيرُ واحد يقال له يحيى منهم يوحنا ابن فرح

وزعمتم أنهم قالوا لكم : انكم ذكرتم أن الله قال في كتابه لنبيكم « وما أرسلنا من قَبْلِكَ إلا رجالاً نوحي إليهم ، فاسألوا أهلَ الذكر ان كنتم لا تعلمون »

وانما عنى بقوله « أهل الذكر » أهلَ التوراة ، وأصحابُ الكتب يقولون ان الله قد بعث من النساء نبيّات منهن [(١)] مريم بنت عمران وبعث منهن حنة وسارة ورفقى

وذكرتم أنهم قالوا : زعمتم أن عيسى تكلم في المهد ، ونحن على تقديمنا له وتقريبنا لامره وافراطنا بزعمكم فيه ـ على كثرة عددنا وتفاوت بلادنا واختلافنا فيما بيننا ـ لا نعرف ذلك ولا ندَّعيه . وكيف ندّعيه ولم نسمعه عن سلف ولا ادَّعاه منا مدَّع . ثم هذه اليهود لا تعرف ذلك وتزعم أنها لم تسمع به الا منكم ، ولا تعرفه المجوس ولا الصابئون ولا عُباد البِدَدَة [(٢)] من الهند وغيرهم ولا الترك والخزر ولا بلغنا ذلك عن أحد من الامم السالفة والقرون الماضية ولا في الانجيل ولا في ذكر صفات المسيح في الكتب والبشارات به على ألسنة الرسل [(٣)] ومثل هذا لا يجوز أن يجهله الولى والعدو وغير الولى وغير العدو ، ولا يضرب به مثل ولا يروح به الناس ثم يُجمع النصارى على رده مع حبهم لتقوية أمره ، ولم يكونوا ليضادّوكم [(٤)] فيما يرجع عليهم نفعه . وكيف لم يكذبوكم فى إحيائه الموتى ومشيه على الماء وابراء الاكمه والابرص ، بل لم يكونوا ليتفقوا على اظهار خلاف دينهم وانكار أعظم حجة كانت لصاحبهم . ومثل هذا لا ينكتم ولا ينفكّ ممن يخالف وينمّ . والكلام فى المهد أعجب من كل عجب وأغرب من كل غريب وأبدع من كل بديع ، لان إحياء الموتى والمشى على الماء وإقامة المقعد وابراء الأعمى وابراء الأكمه قد أتت به الانبياء وعرفه الرسل ودار في أسماعهم ، ولم يتكلم صبي قط ولا مولود فى المهد . وكيف ضاعت هذه الآية وسقطت

---

(١) في الاصل « منهم » (٢) جمع « بد » بضم الباء وتشديد الدال ، وهو بيت فيه أصنام وتصاوير أو هو الصنم نفسه . فارسى معرّب (٣) يعنى أنبياء بني اسرائيل الذين جاءوا قبل المسيح (٤) فى الاصل ولم يكن ليضادوهم .

حجة هذه العلامة من بين كل علامة ؟ وبعدُ فـكل أعجوبة يأتى بها الرجال(١) والمعروفون بالبيان والمنسوبون الى صواب الرأي تكون الحيـلةُ فى الظن اليها أقربَ ، وخوفُ الخدعة عليها أغلبَ . والصبى المولود عاجز فى الفطرة ممتنع من كل حيلة ، وهذا (٢) لا يحتاج فيه الى نظر ولا ليشبهه من شاهده بدخل

فصل منه

وسنقول فى جميع ماورد علينا من مسائلكم وفيما لا يقع اليكم من مسائلهم بالشواهد الظاهرة والحجج القوية والادلة الاضـطرارية . ثم نسألهم بعد جوابنا إياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم ، وانتثار مذهبهم ، وتهافت دينهم . ونحن نعوذ بالله من التكلف وانتحال مالانحسن ، ونسأله القصد فى القول والعمل وأن يكون ذلك لوجهه ، ولنصرة دينه ، انه قريب مجيب * فأنا مبتدىء في ذكر الاسباب التى لها صارت النصارى أحبَّ الى العوام من المجوس ، وأسلم صدوراً عندهم من اليهود ، وأقرب مودة وأقل غائلة وأصغر كفراً وأهون عذابا. ولذلك أسباب كثيرة ، ووجوه واضحة . يعرفها من نظر ، ويجهلها من لم ينظر

أول ذلك ان اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها ، وعداوةُ الجيران شبيهة بعداوة الاقارب في شدة التمكن وثبات الحقد ، وانما يعادى الانسان من يعرف ، ويميل على من يرى ، ويناقض من يشاكل ، ويبدو له عيوب من يخالط . وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد . ولذلك كانت حروب الجيران وبني الاعمام من سائر الناس وسائر العرب أطولَ ، وعداوتهم أشدَّ . فلما صار المهاجرون لليهود جيراناً ، وقد كانت الانصار متقدمة الجوار ، مشاركة

---

(١) فى الاصل « الرجل » وفى نسخة هامش الـكامل للمبرد « الرجال »

(٢) لفظ « وهذا » ساقط من الاصل وموجود بنسخه هامش الـكامل

فى الدار ، حسدتهم اليهود على نعمة الدين ، والاجتماع بعد الافتراق ، والتواصل بعد التقاطع ، وشبّهوا على العوام ، واستمالوا الضَّعَفة ، ومالأوا الاعداء والحسدة. ثم جاوزوا الطعن وادخال الشبهة الى المناجزة والمنابذة بالعداوة ، فجمعوا كيدهم وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى قتالهم ، واخراجهم من ديارهم . وطال ذلك واستفاض فيهم وظهر ، وترادف لذلك الغيظ ، وتضاعف البغض ، وتمكن الحقد . وكانت النصارى — لبعد ديارهم من مَبعث النبى صلى الله عليه وسلم ومُهاجَره — لا يتكلّفون طعناً ، ولا يثيرون كيداً ، ولا يجمعون على حرب . فكان هذا أول أسباب ماغلّظ القلوب على اليهود ، وليّنها على النصارى . ثم كان من أمر المهاجرين الى الحبشة واعتمادهم على تلك الجهة ماحبّبهم الى عوام المسلمين . وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم ، وبقدر مانقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود . ومن شان الناس حب من اصطنع اليهم خيرا أو جرى على يديه ، اراد الله بذلك او لم يُرده ، وبقصد كان ام باتفاق

وأمر آخر — وهو من أمتن أسبابهم وأقوى أمورهم — وهو تأويل آية غلطت فيها العامة حتى نازعت الخاصة وحفظتها النصارى واحتجت واستمالت قلوب الرعاع والسفلة وهو قول الله تعالى ﴿لتجدنّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدنَّ أقربَهم مودَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى — الى قوله — وذلك جزاء المحسنين﴾ وفي نفس الآية أعظم الدليل على ان الله تعالى لم يعنِ هؤلاء النصارى ولا أشباههم الملكانية واليعقوبية ، وانما عنى ضَرْبَ بحيرا وضرْبَ الرهبان الذين كان يخدمهم سلمان . وبين حمل[1] قوله « الذين قالوا انا نصارى » على الغلط منهم في الاسماء وبين ان نجزم عليهم لأنهم نصارى فرْقٌ

(١) في الاصل « وبين قوله » والزيادة من نسخة هامش الكامل

كما ذكر اليهود أنه جاء الاسلامُ وملوكُ العرب رجلان : غسَّانى ولخمى ، وهما نصرانيان . وقد كانت العرب تدين لهما وتؤدّى الاتاوة اليهما ، فكان تعظيم قلوبهم لهما راجعا الى تعظيم دينهما . وكانت تهامة — وان كانت لَقاحا [1] لاتدين لدين ولا تؤدى الاتاوة ولاتدين الملوك - فانها [2] كانت لاتمتنع من تعظيم ماعظم الناس وتصغير ماصغروا . ونصرانيةُ النعمان وملوكِ غسان مشهورة في العرب ، معروفة عند أهل النسب ، ولولا ذلك لدللتُ عليها بالاشعار المعروفة والاخبار الصحيحة . وقد كانت تتجر الى الشام وتُنفذ رجالها الى ملوك الروم ، ولها رحلة في الشتاء والصيف فى تجارة : مرة الى اليمن ومرة قِبَلَ الشام. ومصيفها بالطائف [3] . فكانوا أصحاب نعمة وذلك مشهور مذكور فى القرءان وعند أهل المعرفة . وقد كانت تهاجر الى الحبشة وتأتى باب النجاشي وافدة فيحبوهم بالجزيل ويعرف لهم الاقدار ، ولم تكنْ تعرف كسرى ولا يأنس بهم . وقيصر والنجاشى نصرانيان فكان ذلك أيضا للنصارى دون اليهود . والآخر من الناس تبعٌ للأول في تعظيم من عظم وتصغير من صغر

وأخرى وهي أن العرب كانت النصرانية فيها فاشية وعليها غالبة ، الا مضَر: فلم تغلب عليها يهودية ، ولا مجوسية . ولم تفشُ فيها النصرانية الا ما كان من قوم منهم نزلوا الحِيرة يسمون العباد فانهم كانوا نصارى ، وهم مغمورون مع نَبْذٍ يسير في بعض القبائل ، ولم تعرف مضرُ الا دين العرب ، ثم الاسلام . وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها : على لخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقضاعة وطىّء في قبائل كثيرة وأحياء معروفة . ثم

(١) اللقاح - بفتح اللام - الحي الذين لايدينون للملوك أو لم يصبهم فى الجاهلية سباء

(٢) في الاصل « بأنها » (٣) كذا فى النسخة المطبوعة بهامش الكامل . وفى الاصل المخطوط بعد قوله « فى تجارة » : « مرة الى الحبشة ، ومرة قبل الشام ، ومرة بيثرب ، ومصيفها بالطائف. ومرة منيحين مستأنفا بجهده » ومعنى هذه الجملة الاخيرة غير ظاهر وبعدها « فكانوا اصحاب نعمة . . . الخ »

ظهرت في ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس وأفناء بكر [١] ثم في آل ذى الجدين خاصة. وجاء الاسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة الا ما كان من ناس من اليمانية ونَبْذ يسير من جميع إياد وربيعة . ومعظم اليهودية انما كان بيثرب وحِمْيَر وتيماء ووادى القرى فى ولد هارون دون العرب ، فعطف قلوبَ دهماء العرب على النصارى الملكُ الذي كان فيهم ، والقرابةُ التى كانت لهم . ثم رأت عوامنا أن فيها ملكا قائما ، وأن فيهم عرباً كثيرة ، وأن بنات الروم وَلدن لملوك الاسلام ، وأن فى النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين ؛ فصاروا بذلك عندهم عقلاء ، وفلاسفة حكماء ، ولم يروا ذلك في اليهود

وانما اختلفت أحوال اليهود والنصارى فى ذلك لان اليهود ترى ان النظر فى الفلسفة كفر ، والكلام في الدين بدعة ، وانه مَجلبة لكل شبهة ، وانه لاعلم الا ما كان في التوراة وكتب الانبياء ، وان الايمان بالطب وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة والخروج الى الدهرية والخلاف علي الاسلاف وأهل القدوة ، حتى انهم ليبهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام سالك سبيل أولئك

ولو علمت العوام أن النصارى والروم [٢] ليست لهم حكمة ولا بيان ولا بعد روية ، الاحكمة الكف من الخرط والنجر والتصوير وحياكة البزيون [٣] لاخرجتهم من حدود الادباء ، ولمحتهم من ديوان الفلاسفة والحكماء . لان كتاب المنطق والكون والفساد وكتاب العلوى وغير ذلك لارسطاطاليس وليس برومى ولا نصرانى ، وكتاب المجسطى لبطليموس وليس برومى ولا نصرانى ، وكتاب اقليدس لاقليدس وليس برومى ولا نصرانى ، وكتاب الطب لجالينوس ولم يكن رومياً ولا نصرانياً ، وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وأفلاطون وفلان وفلان ،

---

(١) كذا فى الاصل وفى نسخة هامش الكامل « وأحياء بكر »

(٢) يريد بالروم سكان الانضول من أتباع الدولة البزنطية (٣) السندس

وهؤلاء اناس من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم وهم اليونانيون ، ودينهم غير دينهم وأدبهم غير أدبهم، أولئك علماء وهؤلاء صناع أخذوا كتبهم لقرب الجوار وتداني الدار ، فمنها ما أضافوه الى أنفسهم ومنها ماحولوه الى ملتهم ، الا ما كان من مشهور كتبهم ومعروف حكمهم فانهم حين لم يقدروا على تغيير أسمائها زعموا أن اليونانيين قبيل من قبائل الروم ، ففخروا بأديانهم على اليهود واستطالوا بها على العرب وبذخوا بها على الهند ، حتى زعموا أن حكماءنا اتباع حكمائهم وأن فلاسفتنا احتذوا على مثالهم . فهذا هذا

ودينهم - يرحمك الله - يضاهي الزندقة ، ويناسب في بعض وجوهه قول الدهرية ، وهم من أسباب كل حيرة وشبهة . والدليل على ذلك انا لم نر أهل ملة قط أكثر زندقة من النصارى ، ولا أكثر متحيراً أو مترنحا منهم . وكذلك شأن كل من نظر في الأمور الغامضة بالعقول الضعيفة . ألا ترى أن أكثر من قتل في الزندقة - ممن كان ينتحل الاسلام ويظهره - هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى؟ على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة ومواضع التهمة لم نجد أكثرهم الا كذلك

ومما عظمهم في قلوب العوام وحببهم الى الطغام أن منهم كتّاب السلاطين ، وفراشي الملوك ، وأطباء الاشراف ، والعطارين ، والصيارفة ، ولا نجد اليهودي إلا صباغاً أو دباغاً ، أو حجاما أو قصاباً أو شعّاباً [1] . فلما رأت العوام اليهود والنصارى كذلك توهمت أن دين اليهود فى الاديان كصناعتهم فى الصناعات ، وأن كفرهم أقذر الكفر إذ كانوا هم أقذر الامم . وانما صارت النصارى أقل مساخة من اليهود - على شدة مساخة النصارى - لان الاسرائيلي لايزوج الا الاسرائيلي ، وكل مساختهم مردودة فيهم ومقصورة عليهم . وكانت الغرائب

(١) الشعاب : مصلح الشعب أي الصدع

لاتشوبهم ، ومخولة الاحناس لا تَضرب ولا تُضرب فيهم ، لم ينجبوا في عقل ولا أسر ولا ملح [١]. وانك لتعرف ذلك فى الخيل والابل والحمير والحمام

ونحن ـ رحمك الله تعالى ـ لم نخالف العوام في كثرة أموال النصارى ، وأن فيهم ملكا قائما ، وأن ماءهم أنظف ، وأن صناعتهم أحسن . وانما خالفنا فى فرق مابين الكفرين والفرقتين فى شدة المعاندة واللجاجة ، والارصاد لاهل الاسلام بكل مكيدة ، مع لؤم الاصول وخبث الاعراق . فاما الملك والصناعة والهيئة فقد علمنا أنهم اتخذوا البراذين الشِهْرية [٢] والخيل العتاق ، واتخذوا الجوقات ، وضربوا بالصوالجة ، وتحدقوا المديني ، ولبسوا المُلحَم [٣] والمطبقة ، واتخذوا الشاكرية [٤] وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلىّ وا كتنوا بذلك أجمع ، ولم يبق الا أن يتسموا بمحمد ويكتنوا بأبى القاسم . فرغب اليهم المسلمون . وترك كثير منهم عقد الزنانير وعقدها آخرون دون ثيابهم ، وامتنع كثير من كبرائهم من اعطاء الجزية وأنفوا ـ مع اقتدارهم ـ من دفعها ، وسبُّوا من سبهم وضربوا من ضربهم . ومالهم لايفعلون ذلك وأ كثرَ منه وقضاتنا اوعامتهم يرون أن دم الجاثليق والمطران والاسقف وفاء بدم جعفر وعلى والعباس وحمزة ، ويرون أن النصرانى إذا قذف أم النبى صلى الله عليه وسلم بالغواية أنه ليس عليه الا التعزير والتأديب ، ثم يحتجون انهم انما قالوا ذلك لان أم النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن مسلمة . فسبحان الله العظيم ماأعجب هذا القول ، وأبين انتشاره ! [٥] ومن حكم النبى صلى الله عليه وسلم أن لايساوونا فى المجلس ، ومن قوله « وان سبوكم فاضربوهم وان ضربوكم فاقتلوهم » وهم اذا قذفوا أم النبى صلى الله عليه وسلم بالفاحشة لم يكن لهم عند أمته الا التعزير والتأديب . وزعموا أن افتراءهم على النبى صلى الله

(١) شد الله اسره أى قوى احكام خلقه . والملح الرضاع واللبن (٢) ضرب من البراذين (٣) جنس من الثياب سداه ابريسم ولحمته غير ابريسم
(٤) جمع شاكري معرب « جاكر » بالفارسية بمعنى الاجير والمستخدم (٥) ضعفه

عليه وسلم ليس بنكث للعهد ، ولا بنقض للعقد . وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يعطونا الضريبة عن يد منّاً عليه فى قبولنا منه وعقدنا له ذمته دون اراقة دمه . وقد حكم الله تعالى عليه بالذلة والمسكنة . وما ينبغى للجاهل أن يعلم أن الائمة الراشدين والسلف المتقدمين لم يشترطوا عند أخذ الجزية وعقد الذمة عدم الافتراء على النبى صلى الله عليه وسلم وأمهاته الا لأن ذلك عندهم أعظم في العيون وأجل فى الصدور من أن يحتاجوا الى تخليده فى الكتب ، والى اظهار ذكره بالشرط ، وتثبيته بالبينات . بل لو فعلوا ذلك لكان فيه الوهن عليهم ، والمطمعة فيهم ، ولظنوا أنهم فى القدر الذى يحتاج فيه الى هذا وشبهه . وانما يتواثق الناس فى شروطهم ويفسرون فى عهودهم مايمكن فيه الشبهة أو يقع فيه الغلط أو يغبى عنه الحاكم وينساه الشاهد ويتعلق به الخصم ، فاما الواضح الجليل والظاهر الذي لايخيل فما وجه اشتراطه والتشاغل بذكره ؟ وأما ما احتاجوا الي ذكره في الشروط وكان مما يجوز ان يظهر في العهد فقد فعلوه ، وهو كالذلة والصغارة واعطاء الجزية ومقاسمة الكنائس وان لا يعينوا بعض المسلمين على بعض وأشباه ذلك . فأما أن يقولوا لمن هو أذل من الذليل وأقل من القليل ـ وهو الطالب الراغب في أخذ فديته والانعام عليه بقبض جزيته وحقن دمه ـ : نعاهدك على ان لاتفتري على ام رسول رب العالمين وخاتم النبيين وسيد الاولين والآخرين فهذا مالا يجوز في تدبير أوساط الناس فكيف بالجلة والعلية وأئمة الخليقة ومصابيح الدجى ومنار الهدى ، مع انفة العرب وبأو السلطان وغلبة الدولة وعز الاسلام وظهور الحجة والوعد بالنصرة

على أن هذه الامة لم تبتل باليهود ولا المجوس ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى ، وذلك أنهم يتتبّعون المتناقض من أحاديثنا والضعيف بالاسناد من رواياتنا والمتشابه من آى كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا ، مع

ماقد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين وحتى مع ذلك ربما تبرءوا الى علمائنا وأهل الاقدار منا ، ويشغبون على القوى ويلبسون على الضعيف. ومن البلاء ان كل انسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجّة الملحدين من أحد !

وبعدُ فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ماصار الى أغنيائنا وظرفائنا ومُجّاننا وأحداثنا شيء من كتب المثانية[١] والديصانية[٢] والمرقونية[٣] والفلانية[٤] ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ، ومخلاة فى أيدي ورثتها . فكل سخنة عين رأيناها فى أحداثنا وأغبيائنا فمن قبلهم كان اولها . وأنت اذا سمعت كلامهم فى العفو والصفح وذكرهم للسياحة[٥] وزرايتهم على كل من أكل اللحمان ورغبتهم في اكل الحبوب وترك الحيوان وتزهيدهم فى النكاح وتركهم لطلب الولد ومديحهم للجاثليق والمطران والاسقف والرهبان بترك النكاح وطلب النسل وتعظيمهم الرؤساء علمت أن بين دينهم وبين الزندقة نسبا وانهم يحنّون الى ذلك المذهب

والعجب أن كل جاثليق لا ينكح ولا يطلب الولد ، وكذلك كل مطران وكل أسقف ، وكذلك كل أصحاب الصوامع من اليعقوبية والمقيمين فى الديورات

---

(١) كذا الاصل ، ولعله (البنانية) وهم ـ كما في الملل والنحل للشهرستانى ١ : ٢٠٤ ـ «من الغلاة القائلين بالهية أمير المؤمنين على عليه السلام ، قالوا : حل في على جزء الهي واتحد بجسده» (٢) يدينون بالنور على أنه مصدر الخير قصدا واختيارا وبالظلام على أنه مصدر الشر طبعا واضطرارا (٣) يدينون بالنور والظلام على أنهما أصلان متضادان ، ومعهما ثالث هو دون النور وفوق الظلمة ، ووظيفته التعديل وهوسبب المزاج

(٤) كذا الاصل ، ولعله (العليائيه) قال الشهرستاني (٢ : ١٢) انهم « أصحاب العلياء ابن ذراع الدوسى . . . وكان يفضل عليا على النبي صلى الله عليه وسلم وزعم أنه الذى بعث محمدا وسماه الها . . ومنهم من قال بالهيتهما جميعا »

(٥) يريد خروجهم من المدن طلبا للزهد

والبيوت من النسطورية ، وكل راهب في الارض وراهبة ـ مع كثرة الرهبان والرواهب ومع تشبه أكثر القسيسين بهم فى ذلك ومع ما فيهم من كثرة الغزاة وما يكون فيهم مما يكون في الناس من المرأة العاقر والرجل العقيم على أن من تزوج منهم امرأة لم يقدر على الاستبدال بها ولا على أن يتزوج اخرى معها ولا على التسري عليها ـ وهم مع هذا قد طبقوا الارض وملأوا الآفاق وغلبوا الامم بالعدد وبكثرة الولد . وذلك مما زاد فى مصائبنا وعظمت به محنتنا . ومما زاد فيهم وأنمي عددهم أنهم يأخذون من سائر الامم ولا يعطونهم ، لان كل دين جاء بعد دين أخذ منه الكثير واعطاه القليل

فصل منه

ومما يدل على قلة رحمتهم وفساد قلوبهم أنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الامم ، والخصاء أشد المثلة وأعظم ماركبه انسان . ثم يفعلون ذلك باطفال لاذنب لهم ولا دفع عندهم . ولا نعرف قوماً يُعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا الا ببلاد الروم والحبشة ، وهم فى غيرهما قليل وأقل قليل . على أنهم لم يتعلموا الا منهم ، ولا كان السبب فى ذلك غيرهم . ثم خصَوْا أبناءهم وأسلموهم فى بيعهم . وليس الخصاء الا فى دين الصابئين ، فان العابد ربما خصى نفسه ولا يستحل خصاء ابنه (١) ، فلو تمت ارادتهم فى خصاء أولادهم فى ترك النكاح وطلب النسل كما حكيت لك قبل هذا لانقطع النسل وذهب الدين وفُتن الخلق

والنصراني وان كان أنظف ثوبًا وأحسن صناعة وأقل مساخة فان باطنه ألأم وأقذر وأسمج ، لانه أقلف ولا يغتسل من الجنابة ويأكل لحم الخنزير وامرأته جنب لا تطهر من الحيض ولا من النفاس ويغشاها في الطمث وهي مع ذلك غير مختونة . وهم مع شرار طبائعهم وغلبة شهواتهم ليس فى دينهم مزاجر

(١) كذا فى نسخة هامش الكامل ، وفى الاصل « نفسه »

كنار الأبد فى الآخرة وكالحدود والقود والقصاص فى الدنيا ، فكيف يجانب ما يفسده ويؤثر ما يصلحه مَن كانت حاله كذلك . وهل يصلح الدنيا من هو كما قلنا ، وهل يهيج على الفساد الا من وصفنا ؟

ولو جهدت بكل جهدك وجمعت كل عقلك أن تفهم قولهم فى المسيح لما قدرت عليه حتى تعرف به حد النصرانية وخاصة قولهم في الالهية . وكيف تقدر على ذلك وأنت لو خلوت ونصراني نسطورى فسألته عن قولهم فى المسيح لقال قولا ، ثم ان خلوت بأخيه لامه وأبيه وهو نسطورى مثله فسألته عن قولهم فى المسيح لاتاك بخلاف قول أخيه وضده . وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية . ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة النصرانية كما نعرف جميع الاديان . على أنهم يزعمون ان الدين لا يخرج فى القياس ولا يقوم على المسائل ولا يثبت فى الامتحان ، وانما هو بالتسليم لما فى الكتب والتقليد للاسلاف . ولعمرى ان من كان دينه دينهم ليجب عليه أن يعتذر بمثل عذرهم . وزعموا أن كل من اعتقد خلاف النصرانية من المجوس والصابئين والزنادقة فهو معذور ، ما لم يتعمد الباطل ويعاند الحق . فاذا صاروا الى اليهود قضوا عليهم بالمعاندة ، وأخرجوهم من طريق الغلط والشبهة

فصل منه

فاما مسألتهم فى كلام عيسى فى المهد فهي أن النصارى مع حبهم لتقوية أمره لا يثبتونه ، وقولهم انا تقولناه ورويناه عن غير الثقاة ، وأن الدليل على أن عيسى لم يتكلم فى المهد أن اليهود لا يعرفونه وكذلك المجوس وكذلك الهند والخزر والديلم ، فنقول - في جواب مسألتهم عند انكارهم كلام المسيح فى المهد مولوداً - يقال لهم : انكم حين سوّيتم المسألة وموّهتموها ونظمتم ألفاظها ظننتم أنكم قد نجحتم وبلغتم غايتكم ، ولعمرى لئن حسن ظاهرها وراع الاسماع مخرجها انها

لقبيحة المفتّش ، سيئة المغزى . ولعمري لو كانت اليهود تقرّ لكم باحياء الاربعة الذين تزعمون ، وإقامة المقعد الذي تدَّعون ، وإطعام الجمع الكثير من الارغفة اليسيرة ، وتصيير الماء جمداً ، والمشى على الماء ، ثم أنكرتْ الكلام فى المهد من بين جميع آياته وبراهينه ، لكان لكم فى ذلك مقال ، والى الطعن سبيل . فاما وهم يجحدون ذلك أجمع : فمرة يضحكون ، ومرة يغتاظون ويقولون انه صاحب رُقى ونيرنجات ومُداوى مجانين ومتطبب وصاحب حيل ومريّض خدع (١) وقراءة كتب وكان لَسِناً سُكَيتاً ومقتولا مرحوما (٢) ، ولقد كان قبل ذلك صياد سمك وصاحب شبك وكذلك أصحابه ، وانه خرج على مواطأة منهم له ، وانه لم يكن له شدة . وأحسنهم قولا وألينهم مذهباً من زعم أنه ابن يوسف النجار ، وأنه قد كان واطأ ذلك المقعد قبل إقامته بسنين حتى اذا شهره بالقعدة وعُرف موضعه فى الزَّمنى مرَّ به فى جمع من الناس كأنه لا يريده فشكا اليه الزمانة وقلة الحيلة وشدة الحاجة فقال ناولنى يدك فناوله يده فاجتذبه فأقامه فكان تجمع لطول القعود حتى استمر بعد ذلك ، وانه لم يحى ميتاً قط وانما كان داوى رجلا يقال له لاعار إذ اغمى عليه يوما وليلة وكانت امه ضعيفة العقل قليلة المعرفة فمر بها فاذا هي تصرخ وتبكى فدخل اليها ليسكتها ويعزيها وجس عرقه فرأى فيه علامة الحياة فداواه حتى أقامه فكانت لقلة معرفتها لا تشك أنه قد مات ولفرحها بحياته تثني عليه بذلك وتتحدث به . فكيف تستشهدون قوماً هذا قولهم فى صاحبكم حين قالوا : كيف يجوز أن يتكلم صبى فى المهد مولوداً فيجهله الاولياء والاعداء ؟

ولو كانت المجوس تقر لعيسى بعلامة واحدة وبأدنى اعجوبة لكان لكم أن تنكروا علينا بهم ، وتستعينوا بأنكارهم . فاما وحال عيسى فى جميع أمره عند المجوس كحال زرادُشْت فى جميع أمره عند النصارى فما اعتلالهم بهم وتعلقهم

---

(١) فى الاصل « وترمض خدع » (٢) كذا الاصل ولعله بالجيم المعجمة

فى انكارهم ؟

وأما قولكم: فكيف لم تعرف الهندُ والخزَرُ والتركُ ذلك ؟ فمتى أقرت الهند لموسى باعجوبة واحدة فضلا عن عيسى ؟ ومتى أقرت لنبي بآية أو روت له سيرة حتى تستشهدوا الهند على كلام عيسى فى المهد ؟ ومتى كانت الترك والديلم والخزر والتتر والطيلسان مذكورة في شيء من هذا الجنس ، محتجاً بها على هذا الضرب ؟

فان سألونا عن أنفسهم فقالوا: مالنا لا نعرف ذلك ولم يبلغنا عن أحد بتة ؟ أجبناهم بعد اسقاط نكيرهم وتشنيعهم وتزوير شهودهم ، فجوابنا : أنهم انما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس : اثنان منهم من الحواريين بزعمهم يوحنا ومتى ، واثنان من المستجيبة (١) وهما مارقش ولوقش. وهؤلاء الاربعة لا يؤمن عليهم الغلط ولا النسيان ولا تعمد الكذب ولا التواطؤ على الامور والاصطلاح على اقتسام الرياسة وتسليم كل واحد منهم لصاحبه حصته التى شرطها له . فان قالوا : انهم كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذبا وأحفظ من أن ينسوا شيئاً وأعلى من ان يغلطوا في دين الله تعالى أو يضيعوا عهداً ، قلنا : ان اختلاف رواياتهم فى الانجيل ، وتضادّ معانى كتبهم ، واختلافهم فى نفس المسيح مع اختلاف شرائعهم ؛ دليل على صحة قولنا فيهم (٢) وغفلتكم عنهم. وماينكر من مثل لوقش أن يقول باطلا وليس من الحواريين، وقد كان يهوديا قبل ذلك بأيام يسيرة . ومن هو عندكم من الحواريين خير من لوقش عند المسيح فى ظاهر الحكم بالطهارة والطباع الشريفة وبراءة الساحة

---

(١) اظن معناه انهما دعيا الى النصرانية فيما بعد فاستجابا لها

(٢) من هنا الى آخر الرسالة غير موجود فى النسخة المطبوعة - بهامش الكامل

فصل منه

وسألتم عن قولهم : اذا كان تعالى قد اتخذ عبدا من عباده خليلا فهل يجوز أن يتخذ عبدا من عباده ولدا ، يريد بذلك اظهار رحمته له ومحبته اياه وحسن تربيته وتأديبه له ولطف منزلته منه ، كما سمى عبدا من عباده خليلا وهو يريد تشريفه وتعظيمه والدلالة على خاص حاله عنده . وقد رأيت من المتكلمين من يجيز ذلك ولا ينكره اذا كان ذلك على التبني والتربية والابانة له بلطف المنزلة والاختصاص له بالمرحمة والمحبة ، لاعلى جهة الولادة واتخاذ الصاحبة ، ويقول ليس في القياس فرق بين اتخاذ الولد على التبني والتربية وبين اتخاذ الخليل على الولاية والمحبة، وزعم أن الله تعالى يحكم في الاسماء بما أحب كما أن له أن يحكم فى المعانى بما أحب . وكان يجوّز دعوى أهل الكتاب على التوراة والانجيل والزبور وكتب الانبياء صلوات الله عليهم في قولهم ان الله قال : اسرائيل بكرى ، أي هو أول من تبنيت من خلقي . وأنه قال : اسرائيل بكرى وبنوه أولادى . وأنه قال لداود : سيولد لك غلام يسمى لى ابنا وأسمى له أبا . وأن المسيح قال في الانجيل : أنا أذهب الى أبى وأبيكم والهي والهكم . وأن المسيح أمر الحواريين أن يقولوا فى صلواتهم : يا أبانا فى السماء تقدّس اسمك . . فى أمور عجيبة ، ومذاهب شنعة ، تدل على سوء عبارة اليهود وسوء تأويل أصحاب الكتب ، وجهلهم بمجازات الكلام وتصاريف اللغات ونقل لغة الى لغة وما يجوز على الله ومالا يجوز . وسبب هذا التأويل كله الغي والتقليد واعتقاد التشبيه . وكان يقول : انما وضعت الاسماء على أقدار المصلحة وعلى قدر مايقابل من طبائع الامم ، فربما كان أصلح الامور وآمنها أن يتبناه الله أو يتخذه خليلا أو يخاطبه بلا ترجمان أو يخلقه من غير ذكر أو يخرجه من بين عاقر وعقيم ، وربما كانت المصلحة غير ذلك كله ، وكما تعبدنا أن نسميه

جوادا أو نهانا أن نسميه سخيا أو سريا وأمرنا أن نسميه مؤمنا ونهانا أن نسميه مسلما وأمرنا أن نسميه رحيما ونهانا أن نسميه رفيقا ، وقياس هذا كله واحد وانما يتسع ويسهل على قدر العادة وكثرتها ، ولعل ذلك كله قد كان شائعا في دين هود وصالح وشعيب واسماعيل اذ كان شائعا في كلام العرب في اثبات ذلك وانكاره

وأما نحن - رحمك الله - فأنا لانجيز أن يكون لله ولد: لامن جهة الولادة ولا من جهة التبني . ونرى أن تجويز ذلك جهل عظيم واثم كبير ، لانه لو جاز أن يكون أباً ليعقوب لجاز أن يكون جدا ليوسف ، ولو جاز ان يكون جداً وابا - وكان ذلك لايوجب نسباً ولا يوهم مشاكلة في بعض الوجوه ولا ينقص من عظم ولا يحط من بهاء - لجاز ايضا ان يكون عما وخالا لانه ان جاز [ان نسميه من أجل المرحمة والمحبة والتأديب أبا جاز [1]] أن يسميه آخر من جهة التعظيم والتفضيل والتسويد أخا ولجاز أن يجد له صاحبا وصديقاً ، وهذا مالا يجوّزه الا من لايعرف عظمة الله وصغر قدر الانسان . وليس بحكيم من ابتذل نفسه في توقير عبده ووضع من قدره في التوفر على غيره . وليس من الحكمة ان تحسن الى عبدك بأن تسيء الى نفسك وتأتي من الفضل مالا يجب بتضييع ما يجب ، وكثير الحمد مالا يقوم بقليل الذم ، ولم يحمد الله ولم يعرف الهيته من جوّز عليه صفات البشر ومناسبة الخلق ومقاربة العباد

وبعد فلا يخلو المولى في رفع عبده واكرامه من أحد أمرين : اما ان يكون لايقدر على كرامته الا بهوان نفسه ، أو يكون على ذلك قادرا مع وفارة العظمة وتمام البهاء. وان كان لايقدر على رفع قدر غيره الا بأن ينقص من قدر نفسه فهذا هو العجز وضيق الذرع ، وان كان علي ذلك قادراً فآثر ابتذال نفسه

(١) هذا ناقص من النسخة التيمورية وموجود في نسخة دار الكتب الازهرية

والحط من شرفه فهذا هو الجهل الذي لا يحمل . والوجهان عن الله جـل جلاله منفيان . ووجه آخر تعرفون به صحة قولي وصـواب مذهبي ، وذلك أن الله تبارك وتعالى لو علم انه قد كان فيما انزل من كتبه على بني اسرائيل أن أباكم كان بكري وابني وانكم أبناء بكري لما كان يغضب عليهم اذ قالوا نحن أبناء الله ، فكيف لايكون ابن الله ابنه وهذا من تمام الاكرام وكمال المحبة ؟ ولا سيما ان كان قال في التوراة : بنو اسرائيل أبناء بكرى . وأنت تعلم أن العرب حين زعمت أن الملائكة بنات الله كيف استعظم الله تعالى ذلك وأكبره وغضب على أهله ، وان كان يعلم أن العرب لم تجعل الملائـكة بناته على الولادة واتخاذ الصاحبة ، فكيف يجوز مع ذلك أن يكون الله قد كان يخبر عباده قبل ذلك بأن يعقوب ابنه وان سـليمان ابنه وأن عزير ابنه وأن عيسى ابنه ، فالله تعالى أعظم من أن يـكون له ابوّة من صفـاته ، والانسـان أحقر من أن تكون بنوّة الله تعالى من أنسابه . والقول بأن الله يكون أبا وجداً وأخاً وعماً للنصارى الزم وان كان للآخرين لازما ، لان النصارى تزعم أن الله هو المسيح بن مريم وان المسيح قال للحواريين اخوتي ، فلو كان للحواريين أولاد لجاز أن يكون الله عمهم . بل قد يزعمون أن مرقش هو ابن شمعون الصفا وان زوزرى ابنته وان النصارى تقر أن في انجيل مرقش « ما زاذ أمك واخوتك على الباب » وتفسير « ما زاذ » معلم . فهم لا يمتنعون من أن يكون الله تبارك وتعالى أبا وجداً وعما

ولولا أن الله قد حكى عن اليهود أنهم قالوا ان عزير ابن الله ، ويد الله مغلولة ، وان الله فقير ونحن أغنياء . وحكى عن النصارى أنهم قالوا المسيح ابن الله ، وقال قالت النصارى المسيح ابن الله ، وقال لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ـ لـكنتُ لأَنْ أخرّ من السماء أحبّ اليّ من أن الفظ بحرف مما

يقولون ولكنى لا أصل الى اظهار جميع مخازيهم وما يسرون من فضائحهم الا بالاخبار عنهم والحكاية منهم .

فان قالوا فاخبرونا عن الله وعن التوراة اليست حقاً ؟ قلنا نعم . قالوا : فان فيها اسرائيل بكري وجميع ما ذكرتم عنا معروف في الكتب . قلنا : ان القوم انما أُتوا من قلة المعرفة بوجوه الكلام ، ومن سوء الترجمة ، مع الحكم بما يسبق الى القلوب . ولعمري أن لو كانت لهم عقول المسلمين ومعرفتهم بما يجوز في كلام العرب وما يجوز على الله مع فصاحتهم بالعبرانية لوجدوا لذلك الكلام تأويلا حسناً ومخرجا سهلا ووجها قريباً ولو كانوا أيضاً لم يعطلوا في سائر ما ترجموا لكان لقائل مقال ولطاعن مدخل، ولكنهم يخبرون أن الله تبارك وتعالى قال في العشر الآيات التى كتبتها أصابع الله « انى أنا الله الشديد ، وانى أنا الله الثقف، وأنا النار التى آكل النيران ، آخذ الابناء بحوب الآباء : القرن الاول والثانى والثالث الى السابع » وان داود قال في الزبور « وافتح عينيك يارب » و« قم يارب » و « أصغ الي سمعك يارب » . وان داود خبر أيضاً فى مكان آخر عن الله تعالى فقال « وانتبه الله كما ينتبه السكران الذي قد شرب الخمر » وان موسى قال في التوراة « خلق الله الاشياء بكلمته وبروح نفسه » وان الله قال فى التوراة لبني اسرائيل « بذراعي الشديد أخرجتكم من أهل مصر » وانه قال فى كتاب أشعياء « أحمد الله حمداً جديدا أحمده فى أقاصي الأرض يملأ الجزائر وسكانها والبحور والقفار وما فيها ويكون بنو قيدار فى القصور وسكان الجبال» يعنى قيدار بن اسماعيل « يصيحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة ويلبسون بحمد الله فى الجزائر » وانه قال على أثر ذلك « ويجي الرب كالجبار وكالرجل الشجاع [المجرب (١)] ويزجر ويصرخ ويهيج الحرب والحمية ويقتل أعداءه

(١) الزيادة فى نسخة دار الكتب الازهرية

يفرح السماء والارض » وان الله قال أيضاً فى كتاب أشعيا « سكت قال هو متى أسكت مثل المرأة التى قد أخذها الطاق للولادة اتلهف وان ترانى اريد أحرث الجبال والشعب وآخذ بالعرب فى طريق لا يعرفونه » وكلهم على هذا اللفظ العربى مجمع ومعنى هذا لا يجوّزه أحد من أهل العلم ومثل هذا كثير تركته لمعرفتكم به

وأنت تعلم أن اليهود لو أخذوا القرآن فترجموه بالعبرانية لأخرجوه من معانيه ولحوّلوه عن وجوهه . وما ظنك بهم اذا ترجموا « فلما آسفونا انتقمنا منهم » و « ولِتصنعَ على عيني » و « السموات مطويات بيمينه » و « على العرش استوى » و « ناضرة الى ربها ناظرة » وقوله « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا » و « كلم الله موسى تكليما » و « وجاء ربك والملك صفاً صفا »

وقد تعلم أن مفسري كتابنا وأصحاب التأويل منا أحسن معرفة وأعلم بوجوه الكلام من اليهود ومتأولى الكتب ، ونحن قد نجد فى تفسيرهم ما لا يجوز على الله فى صفته ولا عند المتكلمين في مقاييسهم ولا عند النحويين في عربيتهم . فما ظنك باليهود مع غباوتهم وغيهم وقلة نظرهم وتقليدهم . وهذا باب قد غلطت فيه العرب أنفسها ، وفصحاء أهل اللغة اذا غلطت قلوبها وأخطأت عقولها فكيف بغيرها ممن لا يعلم كعلمها ! سمع بعض العرب قول جميع العرب « القلوب بيد الله » وقولهم فى الدعاء « نواصينا بيد الله » وقوله جل ذكره « بل يداه مبسوطتان » وقولهم « هذا من أيادي الله ونعمه عندنا » وقد كان من لغتهم أن الكف أيضاً يد كما أن النعمة يد والقدرة يد فغلط الشاعر فقال :

هوّنْ عليكَ فان الامور   بكف الاله مقاديرها

و قد كان ابراهيم بن سيار النظّام يجيب بجواب ، وأنا ذاكره ان شاء الله وعليه كانت علماء المعتزلة ، ولا أراه مقنعاً ولا شافياً . وذلك أنه كان يجعل

الخليل مثل الحبيب ومثل الولى ، وكان يقول خليل الرحمن مثل حبيبه ووليه وناصره وكانت الخلة والولاية والمحبة سواء قالوا ولما كانت كلها عنده سواء جاز أن يسمي عبداً له ولداً لمكان التربية التى ليست بحضانة ، ولمكان الرحمة التى لا تشتق من الرحم ، لان انساناً لو رحم جرو كلب فرباه لم يجز أن يسميه ولداً ويسمى نفسه له أبا ولو التقط صبياً فرباه جاز أن يسميه ولدا ويسمى نفسه له أبا لانه شبيه ولده وقد يولد لمثله مثله ، وليس بين الكلاب والبشر أرحام . فاذا كان شبه الانسان أبعد من الله تعالى من شبه الجرو بالانسان كان الله أحق بأن يجعله ولده وينسبه الى نفسه. قلنا لابراهيم النظام - عند جوابه هذا وقياسه الذي قاس عليه فى المعارضة والموازنة بين قياسنا وقياسه - : أرأيت كلباً ألف كلاّباً به وحامى وأحمى دونه فأحياه بكسبه ولزمه على خلائقه واستثاره بالصيد دونه ، هل يجوز أن يتخذه بذلك كله خليلا مع بعد التشابه والتناسب ؟ فاذا قال لا قلنا فالعبد الصالح أبعد شبهاً من الله من ذلك الكلب المحسن الى كلاّبه ، فكيف جاز فى قياسك أن يكون الله خليل من لا يشاكله لمكان احسانه ولا يجوز للكلاب أن يسمي كلبه خليلا أو ولداً لمكان حسن تربيته له وتأديبه إياه ، ولمكان حسن الكلب وكسبه عليه وقيامه مقام الولد الكاسب والاخ والبار ؟ والعبدُ الصالح لا يشبه الله فى وجه من الوجوه والكلب قد يشبه كلاّبه لوجوه كثيرة ، بل ما أشبهه به مما خالفه فيه ، وان كانت العلة التى منعت من تسمية الكلب خليلا وولداً بُعد شبهه من الانسان

فلو قلتم : فما الجواب الذي أجبتَ فيه ، والوجه الذي ارتضيته ؟ قلنا : ان ابراهيم صلوات الله عليه وان كان خليلا فلم يكن خليلا بخلة كانت بينه وبين الله تعالى لان الخلة والاخاء والصداقة والتصافى والخلطة وأشباه ذلك منفية عن الله عز ذكره فيما بينه وبين عباده ، على أن الاخاء والصداقة داخلتان فى الخلة والخلة أعم الاسمين وأخص الحالين ، ويجوز أن يكون ابراهيم

خليلا بالخلة التي أدخلها الله على نفسه وماله .[1] وبين أن يكون خليـلا بخلة بينه وبين ربه فرق ظاهر وبون واضح . وذلك أن ابراهيم عليه السلام اختل في الله تعالى اختلالا لم يختلله أحد قبله : لقذفهم إياه في النار ، وذبحه ابنهُ ، وحمله على ماله فى الضيافة والمواساة والاثرة ، وبعداوة قومه ، والبراءة من أبويه فى حياتهما وبعد موتهما ، وترك وطنه والهجرة الى غير داره ومسقط رأسه . فصار لهذه الشدائد مختلا في الله وخليلا فى الله . والخليل والمختل سواء فى كلام العرب والدليل على أن يكون الخليـل من الخَلة كما يكون من الخُلة قول زهير بن أبي سُلمى وهو يمدح هَرِماً :

وان أتاه خليـل يوم مسألة يقول لا عاجز مالى ولا حرم

وقال آخر :

وانى الى أن تسعفاني بحاجة الى آل ليلي مرة لخليـل

وهو لا يمدحه بأن خليـله وصديقه يكون فقيراً سائلا يأتي يوم المسألة ويبسط يده للصدقة والعطية ، وانما الخليل في هـذا الموضع من الخُلة والاختلال لا من الخَلة والخلال . وكان ابراهيم عليه السلام حين صار فى الله مختلا أضافه الله الى نفسه وأبانه بذلك عن سائر أوليائه فسماه « خليل الله » من بين الانبياء ، كما سمى الكعبة « بيت الله » من بين جميع البيوت ، وأهل مكة « أهل الله » من بين جميع البلدان ، وسمى ناقة صالح عليـه السلام « ناقة الله » من بين جميع النوق ، وهكذا كل شيء عظمه الله تعالى من خير وشرّ وثواب وعقاب ، كما قالوا دعه في لعنة الله وفي نار الله وفى حرقه ، وكما قال للقرآن « كتاب الله » وللمحرم « شهر الله » وعلى هذا المثال قيـل لحمزة رحمة الله عز ذكره ورضوانه عليه « أسد الله » ولخالد رحمة الله عليه « سيف الله » تعالى وفى قياسنا هذ لا يجوز أن الله خليل ابراهيم كما يقال ان ابراهيم خليل الله

(١) لعله سقط من هنا كلمة « وبين هذا »

فان قال قائل فكيف لم يقدموه على جميع الانبياء اذ كان الله قدمه بهذا الاسم الذى ليس لاحد مثله قلنا ان هذا الاسم اشتق له من عمله وحاله وصفته وقد قيل لموسى عليه السلام « كليم الله » وقيل لعيسى « روح الله » ولم يقل ذلك لابراهيم ولا لمحمد صلوات الله عليهما ، وان كان محمد صلى الله عليه وسلم ارفع درجة منهم لان الله تعالى كلم الانبياء عليهم السلام على ألسنة الملائكة وكلم موسى كما كلم الملائكة فلهذه العلة قيل كليم الله ، وخلق في نطف الرجال[1] اذ قذفها فى ارحام النساء على ما اجرى عليه تركيب العالم وطباع الدنيا ، وخلق فى رحم مريم روحا وجسداً على غير مجرى العادة وما عليه المناكحة ، فلهذه الخاصة قيل له روح الله . وقد يجوز ان يكون فى نبى من الانبياء خصلة شريفة ولا تكون تلك الخصلة بعينها في نبي أرفع درجة منه ، ويكون في ذلك النبى خصال شريفة ليست فى الآخر ، وكذلك جميع الناس كالرجل يكون له أبوان فيحسن برهما وتعاهدهما والصبر عليهما وهو أعرج لا يقدر على الجهاد وفقير لا يقدر على الانفاق ، ويكون آخر لا أب له ولا أم له وهو ذو مال كثير وخلق سوى وجلد طاهر ، فطاع هذا بالجهاد والانفاق وأطاع ذلك ببر والديه والصبر عليهما . والكلام اذا حرك تشعب ، واذا ثبت اصله كثرت فنونه واتسعت طرقه . ولولا ملالة القارىء ومداراة المستمع لكان بسط القول فى جميع ما يعرض أتم للدليل واجمع للكتاب . ولكننا انما ابتدأنا الكتاب لنقتصر به على كسر النصرانية فقط

فصل منه

قلنا فى جواب آخر : ان كان المسيح انما صار ابن الله لان الله خلقه من غير ذكر فآدم وحواء اذ كانا من غير ذكر وأنثى أحق بذلك ان كانت العلة فى اتخاذه ولدا انه خلقه من غير ذكر ، وان كان ذلك لمكان التربية فهل رباه الا حماد

(١) لم يرد فى الاصل مفعول « خلق »

ابن موسى وداوود وجميع الانبياء ، وهل تأويل رباه الا غذاه ورزقه واطعمه وسقاه فقد فعل ذلك بجميع الناس ، ولم سميتم سقيه لهم واطعامه اياهم تربية ؟ ولم قلتم رباه وانتم لاتريدون الا غذاه ورزقه ؟ وهو لم يحضنه ولم يباشر تقليبه ولم يتولَّ بنفسه سقيه واطعامه فيكون ذلك سبباله دون غيره ، وانما سقاه لبن أمه في صغره وغذاه بالحبوب والماء في كبره

فصل منه

والاعجوبة في آدم عليه السلام أبدع وتربيته اكرم ومنقلبه أعلى وأشرف اذ كانت السماء داره والجنة منزله والملائكة خدامه بل هو المقدم بالسجود والسجود أشد الخضوع. وان كان بحسن التعليم والتثقيف فمن كان الله تعالى يخاطبه ويتولى مناجاته دون أن يرسل اليه ملائكته ويبعث اليه رسله اقرب منزلة وأشرف مرتبة وأحق بشرط التأديب وفضيلة التعليم. وكان الله تعالى يكلم آدم كما كان يكلم ملائكته ثم علمه الاسماء كلها ولم يكن ليعلمه الاسماء كلها الا بالمعاني كلها. فاذا ذلك كذلك فقد علمه جميع مصالحه ومصالح ولده ، وتلك نهاية طباع الآدميين ومبلغ قوى المخلوقين

فصل منه

فاما قولهم انا نقول على الناس مالا يعرفونه ولا يجوز أن يدينوا به وهو قولنا ان اليهود قالت ان الله تعالى فقير ونحن اغنياء ، وانها قالت ان يد الله مغلولة ، وأنها قالت ان عزيرا بن الله ، وهم مع اختلافهم وكثرة عددهم ينكرون ذلك ويأبونه أشد الاباء . قلنا لهم : ان اليهود لعنهم الله تعالى كانت تطعن على القرآن وتلتمس نقضه وتطلب عيبه وتخطىء فيه صاحبه وتأتيه من كل وجه وترصده بكل حيلة ، ليلتبس على الضعفاء وتستميل قلوب الأغبياء. فلما سمعتْ قول الله تعالى لعباده الذين أعطاهم قرضا وسألهم قرضا على التضعيف

فقال عز من قائل « ومن يُقرض الله قرضاً حسناً فيُضاعفه له » قالت اليهود على وجه الطعن والعيب والتخطئة والتعنت : تزعم أن الله يستقرض منا وما استقرض منا الا لفقره وغنانا فكفرت بذلك القول اذ كان على وجه التكذيب والتخطئة لا على وجه أن دينها كان في الأصل أن الله فقير وأن عباده أغنياء . وكيف يعتقد انسان أن الله تعالى عاجز عما يقدر عليه مع اقراره بأنه الذى خلقه ورزقه وان شاء حرمه وان شاء عذبه وان شاء عفا عنه ، وقدرته على جميع ذلك كقدرته على واحد ، ومجاز الآية في اللغة واضح وتاويلها بيّن . وذلك أن الرجل منهم كان يقرض صاحبه لارفاقه ليعود اليه مع أصل ماله اليسيرُ من ربحه ثم هو مخاطر به الى أن يعود فى ملكه ، فقال لهم بحسن عادته ومنته : آسوا فقراءكم ، وأعطوا فى الحق أقرباءكم من المال الذى أعطيتكم والنعمة التي خولتكم بأمرى اياكم وضمانى لكم فأعتدّه منكم قرضا وان كنت أولى به منكم فأنا موفيكم حقوقكم الي مالا ترتقى اليه همة ، ولا تبلغه أمنية . على أنكم قد أمنتم من الخطار وسلمتم من التغرير . والرجل يقول لعبده أسلفنى درهما عند الحاجة تعرض له وهو يعلم أن عبده وماله له ، وانما هذا كلام وفعال يدل على حسن الملكة والتفضل على العبد والأمة واخبار منه لعبده أنه سيعيد اليه ما كانت سخت به نفسه . وهذا لا يغلط فى الكلام ولا يضيق فيه ولكن المتعنت ليتعلق بكل سبب ويتشبث بكل ما وجد

وأما اخباره عن اليهود انها قالت « يد الله مغلولة » فلم يذهب الى أن اليهود ترى بأن ساعده مشدودة الى عنقه بغُلّ . وكيف يذهب الى هذا ذاهب ويدين به داين ، لانه لابد من أن يكون يذهب الى أنه غلّ نفسه أو غله غيره وأيهما كان فانه منفى عن وهم كل بالغ يحتمل التكليف وعاقل يحتمل التثقيف .

ولكن اليهود قوم جبرية [١] والجبرية تبخّل الله مرة وتظلّمه مرة وان لم تقرّ بلسانها وتشهد على اقرارها فقولهم « يد الله مغلولة » يعنون برّه واحسانه ، وقولهم مغلولة لأن غيره حبسه ومنعه ولكن اذا كان عندهم أنه الذى منع أياديه وحبس نعمه فهى محبوسة بحبسه وممنوعة بمنعه . والذى يدل على أنهم أرادوا باليدين النعمة والافضال دون الساعد والذراع جواب كلامهم حين قال « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » دليلا على ماقلنا وشاهدا على ماوصفنا . فان قالوا فكيف لم يُقَل ان اليهود بخَّلت الله وجحدت احسانه دون أن يقال ان يد الله مغلولة . قلنا ان أراد الله الاخبار عن كفر قوم وسخطه عليهم فليس لهم عليه أن يعبر عن دينهم وعيوبهم بأحسن المخارج ويجلّيها بأحسن الألفاظ ، وكيف وهو يريد التنفير عن قولهم وأن يبغضهم الى من سمع ذلك عنهم . ولو أراد الله تعالى تليين الأمر وتصغيره وتسهيله لقال قولا غير هذا وكل [٢] صدق جائز في الكلام . فهذا مجاز مسألتهم في اللغة ، وهو معروف عند أهل البيان والفصاحة

وأما قولهم ان اليهود لاتقول ان عزيرا بن الله ، فان اليهود فى ذلك على قولين : أحدهما خاص والآخر عام فى جماعتهم . فاما الخاص فان ناسا منهم لما رأوا عزيرا أعاد عليهم التوراة من تلقاء نفسه بعد دروسها وشتات أمرها غلوا فيه وقالوا ذلك وهو مشهور من أمرهم ، وان فريقا من بقاياهم باليمن والشام وداخل بلاد الروم . وهؤلاء بأعيانهم يقولون « ان اسرائيل - اللهِ ابنُه » اذ كان ذلك على خلاف تناسب الناس ، وصار ذلك الاسم لعزير بالطاعة والعلامة والمرتبة لأنه من ولد اسرائيل . والقول الذى هو عام فيهم أن كل [٣] يهودى وَلَدَهُ اسرائيل فهو ابن الله اذ لم يجدوا ابن ابن قط الا وهو ابن

---

(١) قال الشهرستاني في (الملل والنحل) ١ : ١٠٨ « الجبر هو نفى الفعل حقيقة عن العبد واضافته الى الرب تعالى . والجبرية أصناف : فالجبرية الخالصة هى التي لاتثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا» (٢) في الاصل « وحل » (٣) في الاصل « يكون »

فصل منه

فان قالوا أليس المسيح روح الله وكلمته كما قال عز ذكره « وكلمته ألقاها الى مريمَ ورُوحٌ منه » ، أوليس قد أخبر عن نفسه حين ذكر أمه أنه نفخ فيها من روحه ، أو ليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها (١) أو ليس مع ذلك قد أخبر أنه لا أب له وانه كان خالقا اذ كان يخلق من الطين كهيئة الطير فيكون حيا طائرا ، فأى شىء نفى (٢) من الدلالات على مخالفته بمشاكلة جميع الخلق ومباينة جميع البشر ؟ قلنا لهم : انكم انما سألتمونا عن كتابنا وما يجوز في لغتنا وكلامنا ولم تسألونا عما يجوز في لغتكم وكلامكم . ولو أننا جوزنا في لغتنا ما لا يجوز وقلنا على الله ما لا نعرف كنا بذلك عند الله والسامعين في حد المكابرين وأسوأ حالا من المنقطعين ، وكنا قد أعطيناكم أكثر مما سألتم وجزنا بكم فوق أمنيتكم . ولو كنا اذا قلنا « عيسى روح الله وكلمته » وجب علينا فى لغتنا أن يجعله الله ولدا ونجعله مع الله تعالى إلهاً ونقول ان روحا كانت فى الله فانفصلت منـه الى بدن عيسى وبطن مريم فكنا اذا قلنا ان الله سمى جبريل روح الله وروح القدس وجب علينا أن نقول فيه ما يقولون فى عيسى ، وقد علمتم ان ذلك ليس من ديننا ولا يجوز ذلك بوجه من الوجوه عندنا ، فكيف نظهر للناس قولا لا نقوله ودينا لا نرتضيه . ولو قال جل ذكره (٣) « فنفخنا فيه من روحنا » يوجب نفخا كنفخ الزق أو كنفخ الصائغ في المنفاخ ، وأن بعض الروح التى كانت فيه انفصلت الى بطنه وبطن أمه (٤) ، لـكان قوله فى آدم

---

(١) عبارة الاصل « أو ليس مع ذلك قد أخـبر أنه عن حصانة فرجها وطهارتها أخبر أنه نفخ فيها من روحه » وفيه زيادة وتكرير نظنه من الناسخ (٢) كذا في الاصلين ومعنى الجملة غـير ظاهر (٣) هكذا فى الاصل ولعله « ولو كان قوله جل ذكره » (٤) فى الاصل « انفصلت فاصلة الى بطنها وبطن أمها »

يوجب له ذلك لأنه قال « وبدأ خَلْقَ الانسان من طين ثم جعل نسله - الى قوله - ونفخ فيه من روحه » وكذلك قوله « فاذا سَوَّيتهُ ونفختُ فيه من رُوحى فقعوا له ساجـدين » والنفخ يكون من وجوه والروح يكون من وجوه ، فمنها ما أضافه الى نفسه ومنها ما لم يضفه الى نفسه ، وانما يكون ذلك على قدر ماعظم من الأمور ، فمما سمى روحا وأضافه الى نفسه جبريل الروح الأمين وعيسى بن مريم ، والتوفيق كقول موسى حين قال ان بنى فلان أجابوا فلانا النبي ولم يجيبوك فقال له ان روح الله مع كل أحد . وأما القرآن فان الله سماه روحا وجعله يقيم للناس مصالحهم فى دنياهم وأبدانهم ، فلما اشتبها من هـذا الوجه ألزمهما اسمهما فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم « وكذلك أوحينا اليك رُوحاً من أمرنا » وقال « تَنَزَّل الملائكةُ والروح فيها »

فصل منه

قد قلنا في جواباتهم ، وقوّمنا مسائلهم بما لم يكونوا ليبلغوه لأنفسهم ليكون الدليل تاماً والجواب جامعا ، وليعلم من قرأ هذا الكتاب وتدبر هذا الجواب انا لم نغتنم عجزهم ولم ننتهز غرتهم ، وان الادلال بالحجة والثقة بالفلج والنصرة هو الذي دعانا الى أن نخبر عنهم بما ليس عندهم وألا نقول فى مسألتهم بمعنى لم ينتبه له منتبه أو يشير اليـه مشير وألا يوردوا فيما يستقبلون على ضعفائنا ومن قصر نظره منا شيئاً الا والجواب قد سلف فيه وألسنتهم قد دلت به

وسنسألهم ان شاء الله ونجيب عنهم ونستقصى لهم في جواباتهم كما سألنا لهم أنفسنا واستقصينا لهم فى مسائلهم . فيقال لهم : هل يخلو المسيح أن يكون إنساناً بلا اله ، أو إلهاً بلا انسان ، أو أن يكون آلها وانسانا . فان زعموا أنه كان إلها بلا انسان ، قلنا لهم : فهو الذي كان صغيراً فشب والتحى ، والذى كان يأكل

ويشرب وينجو ويبول ، وقتل بزعمكم وصلب ، وولدته مريم وأرضعته . أمْ غيره هو الذى كان يأكل ويشرب على ما وصفنا ؟ فأى شيء معنى الانسان الا ما وصفنا وعددنا ؟ وكيف يكون إلهاً بلا انسان وهو الموصوف بجميع صفات الانسان . وليس القول فى غيره ممن صفته كصفته الا كالقول فيـه كاشتمالها على غيره . وان زعموا أنه لم ينقلب عن الانسانية ولم يتحول عن جوهر البشرية ولكن لمـا كان اللاهوت فيه صار خالقاً وسمي إلهـًا ، قلنا لهم : خبرونا عن اللاهوت أ كان فيه وفي غيره أم كان فيه دون غيره ؟ فان زعموا أنه كان فيـه وفي غيره فليس هو أولى بأن يكون خالقاً ويتسمى إلها من غيره ، وان كان فيه دون غيره فقد صار اللاهوت جسما . وسنقول فى الكسر عليهم اذا صرنا الى القول فى التشبيه وهو قول منعلهم(1) والذى كان عليه جماعتهم الا من خالفهم من متكلميهم ومتفلسفيهم فانهم يقولون بالتشبيه والتجسيم فراراً من كثرة الشناعة وعجزاً عن الجواب ، وكفى بالتشبيه قبحاً . وهو قول يعم اليهود واخوانهم من الرافضة وشياطينهم من المشبهة والحشوية النابتة . وهو بعد متفرق في الناس *
والله تعالى المستعان

﴿ انتهى ﴾

نقلا عن نسخة الخزانة التيمورية بالقاهرة * رقم ١٩ أدب

بخط محمد بن عبد الله بن ابراهيم الزمرانى في ذى القعدة سنة ١٣١٥ هـ

وهى منقولة عن سخة كتبت في رجب عام ٤٠٣ هـ بخط أبي القاسم عبيد الله بن على

---

(١) هكذا الاصل

أخلاق الكتّاب

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله وابقاك ، وأمتع بك * قد قرأت كتابك ، و مِدْحَتَكَ أخلاقَ الكتّاب وفعالَهم ، ووصفَكَ فضائلهم وأيامهم ، وفهمته

ومتى وقع الوصف من القائل تقصيا ، والنعت من الواصف تألفا ، قلَّ شهداؤه ، وكثر خصماؤه ، وخفت المئونة على مجاوبيه فى دعواه ، وسهلت مناصبة الادنياء له فى معناه . لان اغلظ المحن ما عرض على المشهود فأزاله ، وتصفحه المعقول فأحاله . وأضعف العلل ما التمس بعد المعلول ، ونصبت له علما على الموجود بعد الوجود ، واذا تقدم المعلول عنه والمخبر عنه خبره استغنى عن الحاكم ، وظهر عوار الشاهد * فقد رأيتك أطنبت باحماد هذا الصنف من الناس ، وحكمت بفضيلة هذه الطبقة من الخلق ؛ فعلمت ان فرط الاعجاب من القائل متى وافق صناعة المادح رسخ فى التركيب هواه ، ورسبت فى القلوب اوتاده ، واشتد على الناظر افهامه ، وعلى المخاصم بالحق توقيفه ، وكان حكمه فى صعوبة فسخه ، وتعذر دفعه ، حكم الاجماع اذا لاقى محكم التنزيل * ولست أدّعى مع ذلك توقيفك على موضع زللك فى الاحتجاج ، وتنبيهك على النكتة من غلطك فى الاعتلال بما لا يمكن السامع انكاره ، ولا ينساغ له ابطاله . وأبين مع ذلك رداءة مذاهب الكتّاب وافعالهم ، ولؤم طبائعهم واخلاقهم ، بما تعلم أنت ـ والناظر فى كتابى هذا ـ أنى لم أقل الا بعد الحجة ، ولم أحتج الا مع ظهور العلة . ثم استشهد مع ذلك الاضداد تبيانا ، وما اجمع عليه الاعداء انصافا ، اذ كان في ذلك من التبيان مايبهرهم ، ومن القول ما يسكتهم . ثم أقول : ما ظنك بقوم منهم أول مرتد كان

في الاسلام كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فخالف فى كتابه املاءه فانزل الله فيه آيات من القرآن نهى فيها عن اتخاذه كاتبا فهرب حتى مات بجزيرة العرب كافراً ، وهو عبدالله بن سعد بن أبى سرح . ثم استكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده معاوية بن أبى سفيان فكان أول من غدر في الاسلام بأمامه ، وحاول نقض عرى الايمان بآثامه

وكتب عثمان بن عفان رضى الله عنه لابي بكر رضى الله عنه مع طهارة اخلاقه وفضائل أيامه ، فلم يمت حتى أداه عرق الكتابة الى ذم من ذمه من أوليائه

ثم كتب لعمر بن الخطاب رضى الله عنه زيادُ بن أبيه فانعكس شرٌ ناشىء فى الاسلام : نُقضت بدعوته السنة ، وظهرت فى أيام ولايته بالعراق الجبرية

ثم كتب لعثمان بن عفان رضى الله عنه مروانُ بن الحكم فخانه في خاتمه وأشعل الرعية حربا عليه فى ملكه

ثم أفضى الامر الى علي بن ابى طالب رضى الله عنه فتبين من البصيرة في الكتّاب ما لم ير التنويه بذكر كاتب حتى مات

ولو كانت الكتابة شريفة والخط فضيلة ، كان أحقَّ الخلق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أولى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتهم وذوو الفضل والشرف فيهم . ولكن الله منع نبيه صلى الله عليه وسلم ذلك ، وجعل الخط منه دنية ، وسد العلم به على النبوة . ثم صير المَلِك في ملْكه ، والشريف فى قومه ينجح برداءة الخط ، وينبل بقبح الكتاب . وان بعضهم كان يقصد لتقبيح خطه وان كان حلواً ، ويرتفع عن الكتاب بيده وان كان ماهراً ، وكان ذلك عليه سهلا ، فيكلفه تابعه ويحتشم من تقليده الخطيرَ من جلسائه

وكتب احمد بن يوسف يوما بين يدي المأمون خطا اعجبه فقال : وددت والله أني كتبت مثله وأنى مغرم الف الف . فقال له احمد بن يوسف : لا تأس

عليه يا أمير المؤمنين ، فانه لو كان حظا ماحرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومع ذلك ان قبح الكتابة بني على انه لا يتقلدها الا تابع ، ولا يتولاها الا من هو في معنى الخادم . ولم نر عظيما قط تولاها بنفسه أو شارك كاتبه في عمله . وكل كاتب فمحكوم عليه بالوفاء ، ومطلوب منه الصبر على اللأواء . وتلك شروط متنوعة عليه ، ومحنة مستكملة لديه . وليس للكاتب اشتراط شيء من ذلك ، بل يناله الاستبطاء عند أول الزلة وان أكدى ، ويدركه العدل بأول هفوة وان لم يرض . تجب للعبد استزادة السيد بالشكوى ، والاستبدال به اذا اشتهى. وليس للكاتب تقاضي فائته اذا ابطأ ، ولا التحول عن صاحبه اذا التوى . فأحكامه احكام الارقاء ، ومحله من الخدمة محل الاغبياء . ثم هو مع ذلك فى الذروة القصوى من الصلف ، والسنام الاعلى من البذخ ، وفى البحر الطامي من التيه والسرف. يتوهم الواحد منهم اذا عرّض جبته ، وطول ذيله ، وعقص على خده صدغه ، وتحدف الشابورتين (١) على وجهه ، انه المتبوع ليس التابع ، والمليك فوق المالك . ثم الناشيء فيهم اذا وطيء مقعد الرئاسة ، وتورّك مشورة الخلافة ، وحجزت السلة دونه ، وصارت الدواة امامه ، وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه ، وروى لبزرجمهر امثاله ، ولاردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه ، وصير كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ، انه الفاروق الاكبر في التدبير ، وابن عباس في العلم بالتأويل ، ومعاذ بن جبل في العلم بالحلال والحرام ، وعلي بن ابى طالب فى الجرأة على القضاء والاحكام ، وابو الهذيل العلاف فى الجر والطفرة ، وابراهيم بن سيار النظام في المكامنات (١) والمجانسات ، وحسين النجار في العبادات والقول بالاثبات ، والاصمعي وابو عبيدة في معرفة اللغات والعلم بالانساب ، فيكون اول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء

(١) كذا الاصل

عليه بتناقضه . ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الاخبار ، وتهجين من نقل الآثار ، فان استرجح أحدٌ اصحابَ الرسول صلى الله عليه وسلم فتل[1] عند ذكرهم شدقه ، ولوى عن محاسنهم كشحه . وان ذكر شريح جرّحه ، وان نعت له الحسَن استثقله ، وان وصف له الشعبي استحمقه ، وان قيل له ابن جبير استجهله ، وان قدم عنده النخَعي استصغره . ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة اردشير بابكان ، وتدبير أنوشروان ، واستقامة البلاد لآل ساسان . فان حذر العيون ، وتفقده المسلمون رجع بذكر السنن الى المعقول ، ومحكمَ القرءان الى المنسوخ ، ونفى مالا يدرك بالعيان وشبه بالشاهد الغائب . لا يرتضي من الكتب الا المنطق ، ولا يحمد الا الواقف ، ولا يستجيد منها الا السائر . هذا هو المشهور من افعالهم ، والموصوف من اخلاقهم

ومن الدليل على ذلك أنه لم يُر كاتب قط جعل القرءان سميره ، ولا علمه فسيره ، ولا التفقه فى الدين شعاره ، ولا الحفظ للسنن والآثار عماده . فان وُجد الواحد منهم ذاكراً شيئا من ذلك لم يكن لدوران فكيه به طلاقة ، ولا المحبة[2] منه حلاوة ، وان آثر الفرد منهم السعي فى طلب الحديث ، والتشاغل بذكر كتب المتفقهين ، استثقله أقرانه واستوخمه ألافه ، وقضوا عليه بالادبار فى معيشته ، والحرفة في صناعته ، حين حاول ماليس من طبعه ، ورام ماليس من شكله .

قال الزهري لرجل : أيعجبك الحديث ؟ قال نعم . قال أما انه لا يعجب الا الفحول من الرجال ولا يبغضه الا اناثهم . ولئن وافق هذا القول من الزهري فيهم مذهباً ان ذلك لبيّن فى شمائلهم ، مفهوم في اشاراتهم

وسئل ثمامة بن أشرس يوماً وقد خرج من عند عمرو بن مسعدة فقيل له : ياأبا معن مارأيت من معرفة هذا الرجل ، وبلوت من فهمه ؟ فقال : مارأيت قوماً

(١) الاصل « فتك »
(٢) كذا بالاصل ولعلها محرّفة عن كلمة « لمجاسه » او « لمجته » أو غير ذلك

نفرت طبائعهم عن قبول العلوم ، وصغرت هممهم عن احتمال لطائف التمييز ، فصار العلم سبب جهلهم ، والبيان علم ضلالتهم ، والفحص والنظر حايد عنهم ، والحكمة معدن شُبههم [أكثر] من الكتّاب

وذكر أبو بكر الاصم ابنَ المقفع فقال : ما رأيت شيئاً الا وقليله أخف من كثيره الا العلم فانه كلما كثر خف محمله ، ولقد رأيت عبد الله بن المقفع هذا فى غزارة علمه ، وكثرة روايته كما قال الله عز ذكره « كمثل الحمار يحمل أسفارا » قد أوهنه علمه ، وأذهله حلمه ، وأعمته حكمته ، وحيرته بصيرته

وكنا في مجلس بشر بن المعتمر يوما وعنده المدكان (١) وثمامة الغلال في جماعة من المعتزلة وأصحاب الكلام ، فتذاكروا العوام ، واستحواذ الفتنة عليهم في التقليد ، واستغلاف قلوبهم بكثير مما ليس من طبعهم ، (٢) فتعظمهم وتقضي لكل من نبل منهم بالصواب في قوله وان لم يعلموا . لا يدينون بالحقيقة ، ولا يحمدون الاظاهر الحلية . ومن الدليل على نذالة طبعهم والعلم بسفالة رأيهم ، تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه ، وقضاؤهم بالعلم لمن لا يعرفونه ، حتى انهم يضربون بالكاتب فيما بينهم المثل ، ويحكمون له بالبصيرة فى الادب ، على غير معاشرة جرت بينهم ولا محبة ظهرت لهم منه ، ليس الا أن هممهم صغرت عنهم ، وامتلأت قلوبهم منهم ، فصار المحفوظ من أقوالهم والذي يدينون به من مذاهبهم : كيف لا يأمن فلان الخطأ مع جلالته ، وكيف ينساغ لاحد تجهيله مع نبله ؟ فان وقعوا على تمييزه هابوه ، وان دعوا الى تفهيمه أكبروه ، وقالوا لم ينصب هذا بموضعه الا لخاصة فيه وان جهلناها ، وفضيلة موسومة وان قصر علمنا عنها . ولعله عمر ابن فرج فى السفه والمباهتة ، وابراهيم بن العباس فى الشره والرقاعة ، ونجاح

(١) كذا الاصل

(٢) لعله سقط من هنا كلام يرجع اليه ضمير « هم » فى قوله « فتعظمهم »

ابن سلمة فى الطيش والسخافة ، وأحمد بن الخصيب فى اللؤم والجهالة ، وآل وهب في النهم والنذالة ، ويحيي بن خاقان فى الذل والفاقة ، وموسى بن عبد الملك فى الرخم والبلادة ، وابن المدبر فى الخب والمكابرة ، والفضل بن مروان فى الفدامة القصوى [١]. وفي عمر بن فرج يقول الشاعر :

لا تطلبن الخير من بنى فرج   لابارك الله فى بني فرج
والعن اذا مالقيته عمراً   لعناً يقيناً بأعظم الهرج
فلعنة ان لعنتها عمراً   تعدل مقبولة من الحجج
ليس على المفترى على عمر   من ضرب حد يخشى ولاحرج

وخبرت أن أبا العتاهية أتى يحيى بن خاقان يوماً ليسلم عليه فلم يأذن له حاجبه فانصرف . وأتاه يوماً آخر فصادفه حين نزل فسلم عليه ودخل يحيى الى منزله ولم يأذن له ، فكتب اليه أبو العتاهية من ساعته رقعة فيها :

أراك حين ترى خيالي   فما هذا يروعك من خيالي [٢]
لعلك خائف منى سؤالا   ألا فلك الامان من السؤال
كفيتك ان حالك لم تمل بي   لاطلب مثلها بدلا بحالي
وان اليسر مثل العسر عندى   بايهما منيت فما أبالي

فلما قرأ يحيى بن خاقان رقعته ووثق بأمانه إياه من السؤال أذن له ، فخرج الحاجب فوجده قد انصرف ولم يعد اليه ولا التقيا بعد ذلك

وجلس الجاحظ [١] يوماً فى بعض الدواوين فتأمل الكتّاب فقال : خِلَق حلوة ، وشمائل معشوقة ، وتظرف أهل الفهم ، ووقار أهل العلم ، فان ألقيت عليهم الاخلاص [١] وجدتهم كالزبد يذهب جفاء ، وكنبتة يحرقها الهيف من الرياح [٣] ، لا يستندون من العلم الى وثيقة ، ولا يدينون بحقيقة . أخفر الخلق لاماناتهم ،

---

(١) كانت بالاصل « في اندام مقصوده »   (٢) كذا الاصل
(٣) الهيف ريح حارة تأتي من جهة اليمن نكباء بين الجنوب والدبور

وأشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم ، الويل لهم ممـا كتبت أيديهم ، وويل لهم ممـا يكسبون

ثم وصف أصحاب الصناعات ، وذكر تعاطف أهلها على نظرائهم ، وتعصب رجالها على غيرهم ، فقال :

لا أعلم أهل صناعة الا وهم يجرون في ذلك الى غاية محمودة ، ويأتون منه آية مذكورة ، الا الـكتّاب : فان أحدهم يتحاذق عند نظرائه بالاستقصاء على مثله ، ويسترجح رأيه اذا بلغ في نكاية رجل من أهل صناعته . ثم ضرب لهم في ذلك مثلا ثم قال : هم كالهرهرة من الـكلاب فى مرابضها يمر بها أصناف الناس فلا تتحرّك ، وان مر بها كاب مثلها نهضت اليه بأجمعها حتى تقتله

وحدثني عمر بن سيف أنه حضر مجلس أبي عباد ثابت بن يحيى [١] يوما فى منزله وعنده جماعة من الـكتاب فذكر ما هم عليه من ملائم الاخلاق ، ومدانس الافعال قال ـ ووصف تقاطعهم عند الاحتياج ، [وعدم] تعاطفهم عند الاختلال ، وزهدهم فى المواصلة فقال ـ :

معاشر الـكتاب ، لا أعلم أهل صناعة أملأ لقلوب العامة منكم ، ولا النعم على قوم أظهر منها عليكم . ثم انكم فى غاية التقاطع عند الاحتياج ، وفى ذروة الزهد في التعاطف عند الاختلال ، وانه ليبلغنى أن رجلا من القصابين يكون فى سوقه فيتلف ما فى يديه فيخلي له القصابون سوقهم يوماً ويجعلون له أرباحهم فيكون بربحها منفرداً ، وبالبيع مفرداً ، فيسدون بذلك خلته ، ويجبرون منه كسره . وانكم لتتنا كرون عند الاجتماع والتعارف ، تنا كر الضباب والسلاحف . ثم مع استحواذكم على صناعتكم وقلة ملابسة أهل الصناعات لها معكم ، لم أر صناعة من

(١) كان كاتب امير المؤمنين المأمون . انظر بعض اخباره فى تاريخ ابن عساكر طبع دمشق (٣ : ٣٧٢)

الصناعات الا وقد يجمع أهلها غيرها اليها فيعانونها جميعاً ، وينزلون[1] لضرب التجارات معاً. الا صناعتكم هذه ، فان المتعاطى لها منكم والمتسمى بها من نظرائكم لايليق به ملابسة سواها ، ولا ينساغ له التشاغل بغيرها . ثم كأنكم أولاد عَلاَّت وضرائر أمهات ، فى عداوة بعضكم بعضا وحنق بعضكم على بعض . أف لكم ولاخلاقكم ! ان للكتاب طبائع لئيمة ؛ ولولا ذلك لم يكن سائر أهل التجارات والمكاسب بنظرائهم بررة ، ومن ورائهم لهم حفظة . وأنتم لاشكالكم مذلون ، ولأهل صنائعكم قالون . قبح الله الذى يقول قضينا فى الامور بالاغلب ، وعرفنا علل النـاس في تكاسبهم وتعاملهم ، فمن كانت علته أكرم كان كرم فعاله أعم ، ولست أعلم علة فى مكتسب أنبل عند الخاصة من مكسبكم

ثم وصف من سلف من هذه الطبقة يوماً فقال : كتب سالم لهشام بن عبد الملك وكان أشد الناس غلطا ، وأضعفهم رأيا . وكان هشام يحضره ، فيسمع من ضعفه ، ويستميحه الرأي يهزأ به . ثم كتب لهم مسعدة ، وكان مؤدبا ، وكانت ضعفة المؤدبين فيه . ثم كتب لهم عبد الحميد وكان معلماً ، وبتحامله على نصر بن سيار انتقضت خراسان ، وزال ملك بنى مروان . ثم كتب لبنى العباس عبد الله بن المقفع فاغرى بهم عبد الله بن علي ففطن له وقتل وهدم البيت على صاحبه. ثم كتب لهم يونس بن أبي فروة وكان زنديقاً فطلب فاختفى بالكوفة ، واكتبل حتى هلك . واستكتب الرشيد يزد ابعادان[2] على ديوان الخراج وكان ثنويا . ثم لم ينوهوا بذكر كاتب حتى ولي المأمون فقدم معه ابن أبي العباس الطوسي فبه انتشرت السعاية بالعراق . واستكتب أبا عباد وكان باثري مؤدبا ، وكان سخيفاً حديداً ولم يزل بمكانه فى ديوانه قيما لابن أبي خالد الأحول والاسم له . ثم كتب له رجاء بن ابى الضحاك وكان أظلمهم وأغشمهم . واستخلف

---

(١) فى الاصل « فيعاونونها جميعا ويتركون » (٢) كذا الاصل

حفصويه على ديوان الخراج وكان ركيكا لسعايته . ثم كتب لهم ابن يزدان وكان اشقاهم حتى هلك . وكتب لهم عمرو بن مسعدة وكان رسائلياً فقط . واسترجح المأمون ـ وهو بخراسان قبل مقدمه ـ من كتاب العراق على غير بلوى ابراهيمَ بن اسماعيل بن داود وأحمد بن يوسف ، فلما قدم امتحنهما فنعسا ، واستنهضهما في الاعمال ففشلا ، فلم يعملا على شيء حتى هلكا . وكان ابراهيم شعوبياً ، وكان يتهم بالثنوية فأن كان ذلك صحيحا ، فقد كانت صبابته بها على جهة التقليد فيها ، لا على جهة التفتيش والاحتجاج فيها . فهذه علة المرتد من سائر الكتاب . وقد قال أهل الفطن ان محض العمى التقليد فى الزندقة ، لأنها اذا رسخت فى قلب أمريء تقليداً أطالت جرأته ، واستغلق على أهل الجدل إفهامه ؟

وكان احمد بن يوسف أفونا وهو أول من عرف بالآفة المخالفة لطبع الكتاب ، واستقضى على ديوان الخراج والجند ابراهيم الحاسب ، والحسن بن أبى المشرف . فلقن ابراهيم من سائر الآداب والعلوم علم الحساب فقط ، ولم يفزع اليه فى قضية ولا رأيٍ حتى هلك . فكان الذي وضعه وأدناه شرهه وهى علة قائمة في كتاب الجند خاصة . واستضعف ولاة الدواوين الحسن بن أبى المشرف عند قول الفضل ابن مروان له ـ وهو على الوزارة ـ ياحسن ، احتجنا الى رجل جزل في رأيه ، متوفر لأمانته ، متصرف فى الامور بتجربته ، مستقدر على الأعمال بعمله ، تصف لنا مكانه ، وتشير علينا به فنقلده جسيما من عملنا . فاجابه سريعاً قال : وجدته لك أصلحك الله كذلك ، قال من هو ؟ قال : أنا . وألح عليه فى قوله ، فتبسم الفضل وقال : هذا من غيرك فيك أحسن منك بلسانك لك ! نعود وننظر أن شاء الله

وحسبك بقوم أنبلهم أخسهم في الرزق مرتبة ، واعظمهم غناء أقلهم عند السلطان عقلا . يرزق صاحب ديوان الرسائل ـ وبلسانه يخاطب الخلق ـ

العشر من رزق صاحب الخراج . ويرزق المحرر - وبخطه يكون جمال كتب الخليفة - الجزء من رزق صاحب النسخ في ديوان الخراج . لا يحضر كاتب الرسائل لنائبة ، ولا يفزع اليه فى حادثة ، فإذا أبرم الوزراء التدبير ، ووقفوا منها على التقدير ، طرحت اليه رقعة بمعاني الامر لينسق فيه القول ، فاذا فرغ من نظامه ، واستوى له كلامه ، أحضرله محرراً فجلس فى أقرب المواطن من الخليفة ، وأمتع المنازل من المختلفة ، فاذا انقضى ذلك فهما والعوام سواء !

هذا وليست صناعتهما بفاشية فى الكتاب ، ولا بموجودة في العوام ، فأغزرهم علماً أمهنهم ، وأقربهم من الخليفة أهونهم ! فكيف بكاتب الخراج الذى عمله ليس بمحظور ، واشراك الناس فيه ليس بممنوع ، يصلح لموضعه كل من عمل وعُمل عليه . أحمد أحواله عند نفسه التعقد على الخصوم ، وأسعد أموره التي يرجو بها البلوغ الشره ومنع الحقوق ، وأحذق ما يكون بصناعته عند نفسه حين يأخذ بأبطال السنن ويعمل بفلتات الدفوع . ولذلك ماذكر أن بعض رجال الشعبى قال له يا أبا عمرو الكتاب شرار خلق الله (١) لا تفعل . ولكن الشعبي كان لسلطانه مداريا

ومن كتاب الجند محمود بن عبد الكريم . كان حميد بن عبد الحميد - عند دخول المأمون مدينة السلام وبعد سكون الهيج وخمود الثائرة - رفع الى المأمون يذكر أن فى الجند دغلا كثيراً ممن دخل فيه بسبب تلك الحروب في أيام الاجناد [وهم] قوم من غير أهل خراسان ممن تشبه بهم وادعى اليهم من الأعراب والدعاة وممن لا يستحق الديوان ، وقوم من أهل خراسان صارت لهم الخواص السنية لم يكن لهم من العناء ما يستحقون به مثلها . وذكر أن بيت المال لا يحمل ذلك . وسأل المأمون أن يوليه تصنيف الجند . ولم يكن مذهب حميد فى ذلك التوفير على المأمون ، ولا

(١) لعل هنا نقصاً ، أو لعل كلمة « لا تفعل » محرفة عن « فانفتل » أو غير ذلك

الشفقه على بيت مال المسلمين ، ولكنه تعصب على أبناء أهل خراسان واضطغن عليهم محاربتهم إياه أيام الحسن بن سهل مع ولده محمد بن أبي خالد وغيرهم، وما كانوا قد انتحوه به من تلك الوقائع والهزائم وما ذهب له من الأموال بذلك السبب ، فولاه المأمون التصنيف وأمر للجند برزق شهرين. فولي حميد العطاء والتصنيف محمود بن عبد الكريم الكاتب ، وعرف محمود ماعنى [(١)] حميد فتحامل على الناس واستعمل فيهم الاحقاد والاحن وخفض [(٢)] الأرزاق ، وأسقط الخواص، وبعث في الكور وأنحى على أهل الشرف والبيوتات ، حسداً لهم وشفاء لغليل صاحبه منهم [(٣)] فقصد لهم بالمكروه والتعنت ، فامتنعت طائفة من الناس من التقدم الى العطاء وتركوا أسماءهم وطائفة انتدبوا مع طاهر بن الحسين بخراسان فسقط بذلك السبب بشرٌ كثير . ثم ان المأمون أمر للناس بتمام أعطياتهم ، واكتسب محمود بن عبد الكريم المذمة وصار ملعنة في محال بغداد وفي مجالسها وطرقها

ومنهم زيد بن أيوب الكاتب عمل فى ديوان الجند أربعين سنة ثم صار فى آخر أيامه قواداً ليحيى بن أكثم القاضي. وذلك أن المأمون أمر له بفرض، فصير يحيي بن أكثم أمر ذلك الفرض الى زيد بن أيوب ، وأمره ألا يفرض الا لامريء بارع الجمال حسن القد والصورة ، فكان أمر ذلك الفرض مشهوراً متعالماً ، ففي ذلك يقول الحسن بن على الحرمازى لزيد بن أيوب :

يازيد ياكاتب فرض الفراش أكلّ هذا طلب للمعاش

مالي أرى فرضك حملانهم يثبت فى القرنين قبل الكباش

وعلى ذلك فانه لم يبلغنى أنه كان فى ولاة ديوان الجند ولا في كتابهم مثل المعلى بن أيوب في نبله وارتفاع همته وكرم صحبته وعفافه وجميل مذهبه وشدة

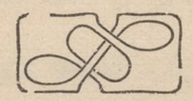
---

(١) في الاصل «ماعزا» (٢) في الاصل « والدمن وحفظ » (٣) في الاصل « واشفى لغليل صاحبه منه »

محاماته عمن صحبه وتحرم به ، فكان المأمون يعرف له ذلك ومن بعده من الخلفاء . فثبتت وطأته ، ودامت ولايته ، وحمد أثره

*
* *

قد أتينا على بعض ما أردنا فيما له قصدنا ، ولم نستعمل الانتزاعات فيما ذكرنا ، وأعرضنا عن التأويلات فيما وصفنا ، وقصدنا الى المأثور فحكيناه ، والى المذكور في الازمنة فأجريناه . لئلا يجد الطاعن فيما وصفنا مقالا ، والمنكر لذم ما ذممنا مساغا . وعلمنا أن من عاند مع ذلك فقد دفع عيانا ، وأنكر كائناً مذكورا ، وفي ذلك دليل باهر على اضمحلاله ، وشاهد عدل لاضداده . ولو حكينا كل ما فى هذا الجنس من الاقوال ، وما يدخله من المقايسات والاشكال ، لطال الكتاب ولمله الناظر المعجاب . فاكتفينا بالخبر من الكتاب ، والبعض دون التمام . وعلمنا أن الناظر فيه ان كان فطنا أقنعه القليل فقضى به ، وان كان بليداً جهولا لم يزده الا كثار الا عيّا ، ومن العلم بما له قصدنا الا بعدا * وبالله الكفاية والتوفيق



وجد فى آخر نسخة الاصل المحفوظة بالمجموعة رقم ١٠٠ من خزانة نور الدين بك مصطفى بالقاهرة مانصه :

تم كتاب ذم أخلاق الكتاب بعون الله ومنه ، ومشيئته وتوفيقه * والله تعالى الموفق للصواب ، والحمد لله أولا وآخرا * وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين * وهو حسبنا ونعم الوكيل * فُرغ من تنميقه صبيحة يوم السبت لثمان وعشرين من شهر ربيع الاول من سنة ست وثمانين والف

رسالة القيان

لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

من أبي موسى بن اسحاق بن موسى ، ومحمد بن خالد خذار خذاه ، وعبدالله ابن أيوب بن أبي سمير ، ومحمد بن حماد كاتب راشد ، والحسن بن ابراهيم بن رباح ، وأبي الخيار ، وأبي الرنال ، وخاقان بن حامد ، وعبد الله بن الهيثم بن خالد اليزيدي المعروف بشرطة ، وعلك بن الحسن ، ومحمد بن هارون كبه ، وإخوانهم المتمتعين بالنعمة ، والمؤثرين للذة ، المتمتعين بالقيان وبالاخوان ، المعدين لوظائف الأطعمة ، وصنوف الأشربة ، والراغبين بأنفسهم عن قبول شيء من الناس ، أصحاب الستر والستارات ، والسرور والمروءات * الى أهل الجهالة والجفاء وغلظ الطبع وفساد الحس

سلام على من وفق لرشده ، وآثر حظ نفسه ، وعرف قدر النعمة ، فانه لا يشكر النعمة من لم يعرفها ويعرف قدرها ، ولا يزداد فيها من لم يشكرها ، ولا بقاء لها عند من أساء حملها . وقد كان يقال حمل الغنى أشد من حمل الفقر ، ومؤنة الشكر أضعف من مشقة الصبر (١) جعلنا الله وإياكم من الشاكرين

(أما بعد) فانه ليس كل صامت عن حجته مبطلا فى اعتقاده ، ولا كل ناطق بها لا برهان له محقاً في انتحاله . والحاكم العادل من لم يعجل بفصل القضاء ، دون استقصاء حجج الخصماء . ودون أن يجول القول فيمن حضر من الخصماء والاستماع منه . وأن تبلغ الحجة مداها من البيان ، ويشرك القاضي

---

(١) يشير الى ماورد في الحديث وأقوال الأئمة من المقارنة بين الغني الشاكر والفقير الصابر انظر كتاب (عدة الصابرين) لابن القيم ص ١١٦ وما بعدها

الخصمين فى فهم ما اختصما فيه ، حتى لا يكون بظاهر ما يقع عليه من حكمه أعلم منه بباطنه ولا بعلانية ، ما يفلج الخصام فيه أطيب منه لسره . ولذلك استعمل أهل الحزم والروية من القضاة طول الصمت ، وانعام التفهم والتمهل ، ليكون الاختيار بعد الاختبار ، والحكم بعد اليقين . وقد كنا ممسكين عن القول بحجتنا فيما تضمنه كتابنا هذا اقتصاراً على أن الحق مكيف (١) بظهوره ، مبين عن نفسه ، مستغن عن أن يستدل عليه بغيره . اذ كان انما يستدل بظاهر على باطن وعلى الجوهر بالعرض ، ولا يحتاج أن يستدل بباطن على ظاهر . وعلمنا أن خصماءنا – وان موهوا وزخرفوا – غير بالغين للفلج والغلبة عند ذوى العدل دون الاستماع منا ، وان كل دعوى لا يفلج صاحبها بمنزلة ما لم تكن بل هي على المدعي كَلٌّ وكرب ، حتى تؤديه الى مسرة النجح أو راحة اليأس . الى ان تفاقم الامر ، وعيل الصبر ، وانتهى الينا عيب عصابة لو أمسكنا عن الاجابة عنها ، والاحتجاج فيها ، علما بان من شأن الحاسد تهجين ما يحسد عليه ومن خلق المحروم [تقبيح] ماحرم وتصغيره والطعن على اهله ، كان لنا في الامساك سعة . فان الحسد عقوبة موجبة للحاسد بما يناله منه ويشينه من عصيان ربه واستصغار نعمته ، والسخط على القدرة ، مع الكرب اللازم والحزن الدائم والتنفس صعدا والتشاغل بما لا يدرك ولا يحصى . وان الذي يشكر فعلى امر محدود يكون شكره ، والذي يحسد فعلى ما لا احد له يكون حسده . فحسده متسع بقدر تغير اتساع ماحسد عليه . لاننا خفنا ان يظن جاهل ان امساكنا عن الاجابة اقرار بصدق العضيهة ، وان اغضاءنا عن ذي الغيبة عجز عن دفعها . فوضعنا فى كتابنا هذا حججاً على من عابنا بملك القيان ، وسبنا بمنادمة الاخوان ، ونقم علينا اظهار النعم والحديث بها . ورجونا النصر اذ قد بدينا ، والبادي اظلم ، وكاتب الحق

---

(١) لعله « متكفل » أو « مكتنف »

فصيح ، ويروى ولسان الحق فصيح ، ونفس المجروح لا يقام لها ، وصولة الحليم المتأنى لا بقاء بعدها . فبينا الحجة فى اطراح الغيرة فى غير محرَّم ولا ريبة ، ثم وصفنا فضل النعمة علينا ، ونقضنا اقوال خصمائنا ، بقول موجز جامع لما قصدنا . فمهما اطنبنا فيه فللشرح والافهام ومهما ادمجنا وطوينا فليخف حمله . واعتمدنا على ان المطول يقصر ، والملخص يختصر ، والمطوي ينشر ، والاصول تتفرع . وبالله الكفاية والعون

ان الفروع لا محالة راجعة الى اصولها ، والأعجاز لاحقة بصدورها ، والموالي تبع لاوليائها ، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة ، ومتفردة بالمضادة ، وبعضها علة لبعض كالغيث علة السحاب ، والسحاب علة الماء والرطوبة . وكالحب علة الزرع ، والزرع علة الحب . والدجاجة علتها البيضة ، والبيضة علتها الدجاجة . والانسان علته الانسان ، والفلك وجميع ما تحويه اقطار الارض وكل ما تقله اكنافها للانسان خول ومتاع الى حين . الا ان أقرب ما سخر له من روحه ، والطفه عند نفسه الانثى : فانها خلقت له ليسكن اليها ، وجعلت بينه وبينها مودة ورحمة . ووجب ان يكون كذلك ، وان يكون احق بها وأولى من سائر ما خوّل ، اذ كانت مخلوقة منه وبعضا له وجزءا من اجزائه ، وكان بعض الشيء أشكل ببعض وأقرب به قربا من بعضه ببعض غيره . فالنساء حرث الرجال كما أن النبات رزق لما جعل رزقا له من الحيوان ، ولولا المحنة والبلوى فى تحريم ما حرم وتحليل ما أحل وتخليص المواليد من شبهات الاشتراك فيها وحصول المواريث في أيدي الاعقاب لم يكن واحد أحق بواحدة منهن من الآخر ، كما ليس بعض السوام أحق برعي مواقع السحاب من بعض ، ولكان الامر كما قالت المجوس ان للرجل[1] الاقربُ فالاقرب اليه رحما وسببا منهن . الا أن الغرض وقع بالامتحان فخص المطلق كما فعل بالزرع

(١) فى الاصل « الرجال »

فانه مرعى لولد آدم ولسائر الحيوان الا ما منع منه التحريم، وكل شيء لم يوجد محرماً في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمباح مطلق، وليس على استقباح الناس واستحسانهم قياس ما لم نخرج من التحريم دليلا على حسنه، وداعياً الى حلاله. ولم نعلم للغيرة في غير الحرام وجها، ولولا وقوع التحريم لزالت الغيرة ولزمنا من أحق بالنساء (١) فانه كان يقال ليس أحد أولى بهن من احد وانما هن بمنزلة المشامّ والتفاح الذي يتهاداه الناس بينهم، ولذلك اقتصر من العدة على الواحدة منهن وفرقّ الباقي منهن على المقربين. غير أنه لما عزم الفريضة بالفرق بين الحلال والحرام اقتصر المؤمنون على الحد المضروب لهم، ورخصوه فيما تجاوزه. فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب، ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفلتة ولا لحظة الخلسة، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة، ويزدوجوا في المناسمة والمشافهة، ويسمى المولع بذلك من الرجال الزير المشتق من الزيارة، وكل ذلك بأعين الأولياء، وحضور الازواج: لا ينكرون ما ليس بمنكر اذا أمنوا المنكر، حتى لقد حصل في صدر اخي بثينة من جميل ما حصل من استعظام المؤانسة، وخروج العذر عن المخالطة، وشكا ذلك الى زوجها وهزه ما حشمه، فكمنا لجميل عند اتيانه بثينة ليقتلاه فلما دنا لحديثه وحديثها سمعاه يقول ممتحنا لها: هل لك فيما يكون بين الرجال والنساء فيما يشفي غليل العشق ويطفيء نائرة الشوق؟ قالت: لا. قال ولم؟ قالت ان الحب اذا نكح فسد. فأخرج سيفاً قد كان اخفاه تحت ثوبه فقال: أما والله لو أنعمت لي لملأته منك. فلما سمعا ذلك وثقا بغيبه وركنا الى عفافه وانصرفا عن قتله، وأباحاه النظر والمحادثة. فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والاسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة.

(١) كذا الاصل

وتلك المحادثة كانت سبب الوصلة بين جميل وبثينة ، وعفراء وعروة ، وكثيّر وعزة ، وقيس وليلى ، وأسماء ومرقش ، وعبد الله بن عجلان وهند ؛ ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ولم يكن النظر من بعضهم الى بعض عاراً في الجاهليه ولا حراماً في الاسلام . وكانت ضباعة من بني عامر بن قرط بن عامر بن صعصعة تحت عبد الله بن جدعان زمانا لاتلد فأرسل اليها هشامُ بن المغيرة المخزومى : ماتصنعين بهذا الشيخ الكبير الذي لايولد له ؟ قولى له يطلقك . فقالت لعبد الله ذلك فقال لها : انى أخاف عليك أن تتزوجي هشام بن المغيرة . قالت لا أتزوجه. قال فأن فعلت فعليك مائة من الأبل تنحرينها في الحزورة [١]، وتنسجين لي ثوبا يقطع ما بين الاخشبين ، والطواف عريانة . قالت لا أطيقه . وأرسلت الى هشام فأخبرته الخبر فأرسل اليها: ماأيسر ماسألك ، وما يلويك وأنا أيسر قريش في المال ونسائي أكثر نساء رجل من قريش ، [٢] وأنت أجمل النساء فلا تأبى عليه . فقالت لابن جدعان طلقني فأن تزوجت هشاماً فعليّ ماقلت. فطلقها بعد استيثاقه منها. فتزوجها هشام ونحر عنها مائة من الجزور وجمع نساءه فنسجن ثوبا يسع مابين الاخشبين ، ثم طافت بالبيت عريانة . فقال المطلب بن أبى وداعة لقد أبصرتها وهى عريانه تطوف بالبيت وانى لغلام أتبعها اذا أدبرت وأستقبلها اذا أقبلت فما رأيت شيئاً مما خلق الله أحسن منها واضعة يدها علي ركبها وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أوكله فما بدا منه فلا أحله
كم ناظر فيه فما أبله أجثم مثل القعب بادٍ ظله

قال ثم ان النساء الى اليوم من بنات الخلفاء وأمهاتهم فمن دونهن يطفن بالبيت

(١) في الاصل « الجزورة » (٢) وفي الاصابة لابن حجر (٤ : ٣٥٣) : وأما طوافك بالبيت عريانة فأنا أسأل قريشا أن يخلوا لك البيت ساعة

مكشفات الوجوه ونحو ذلك لا يكمل حج الا به

وأعرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعاتكة ابنة زيد بن نفيل وكانت قبله عند عبد الله بن أبي بكر رضى الله عنه فمات عنها بعد أن اشترط عليها ألا تتزوج بعده أبداً على أن ينحلها قطعة من ماله سوى الأرث فخطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأفتاها بأن يعطيها مثل ذلك من المال فتتصدق به عن عبد الله ابن أبي بكر رضي الله عنه، فقالت في مرثيته :

فاقسمت لا تنفك عيني سخينة عليك ولا ينفك جلدي اغبرا

فلما ابتنى بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أولم ودعا المهاجرين والانصار فلما دخل علي بن ابي طالب رضى الله عنه قصد لبيت حجلتها فرفع السجف ونظر اليها فقال :

« فاقسمت لا تنفك عيني قريرة عليك ولا ينفك جلدي اصفرا »

فخجلت فاطرقت وساء عمر رضي الله عنه ما رأى من خجلها ونشوزها عند تعيير علي اياها بنقض ما فارقت عليه زوجها فقال: يا أبا الحسن رحمك الله ما اردت الى هذا ؟ فقال حاجة في نفسي قضيتها

هذا وانتم ترون أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان أغير الناس وان النبى صلى الله عليه وسلم قال له اني رأيت قصرا في الجنة فسألت لمن هذا القصر قيل لعمر بن الخطاب فلم يمنعني من دخوله الا معرفتى بغيرتك . فقال عمر رضي الله عنه وعليك يغار يانبى الله ؟ فلو كان النظر والحديث والدعابة يغار منها لكان عمر رضى الله عنه المقدم فى انكاره لتقدمه فى شدة الغيرة، ولو كان حراما لمنع منه اذ لا شك في زهده وورعه وعلمه وتفقهه

وكان الحسن بن علي عليه السلام تزوج حفصة ابنة عبد الرحمن وكان المنذر بن الزبير يهواها، فبلغ الحسن عنها شيء فطلقها، فخطبها المنذر فأبت

أن تتزوجه وقالت شهرني ، وخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فتزوجها ، فرقى اليه المنذر عنها شيئا فطلقها وخطبها المنذر، فقيل لها تزوجيه ليعلم الناس انه كان يعضهك ، فتزوجته فعلم الناس انه كذب عليها . فقال الحسن لعاصم : استأذن عليها المنذر فندخل اليها ونتحدث عندها . فاستأذنه فشاور اخاه عبد الله بن الزبير فقال دعهما يدخلان . فدخلا فكانت الى عاصم أكثر نظراً منها الى الحسن ، وكان أبسط للحديث. فقال الحسن للمنذر : خذ يد امرأتك فأخذ بيدها وقام الحسن وعاصم فخرجا وكان الحسن يهواها وانما طلقها لما رقى اليه المنذر. وقال الحسن يوماً لابن أبي عتيق هل لك في العقيق فخرجا فعدل الحسن الى منزل حفصة فدخل اليها فتحدثا طويلا ثم خرج ثم قال لابن أبي عتيق هل لك في العقيق فقال نعم فنزل بمنزل حفصة ودخل. فقال مرة اخرى : هل لك في العقيق؟ فقال ياابن أم ألا تقول هل لك في حفصة ؟ وكان الحسن في ذلك العصر أفضل أهل دهره ، فلو كان محادثة النساء والنظر اليهن حراماً وعاراً لم يفعله ولم يأذن فيه المنذر بن الزبير ، ولم يشر به عبد الله بن الزبير

وهذا الحديث وما قبله يبطلان ماروت الحشوية من أن النظر الاول حلال والثاني حرام لانه لا يكون محادثة الا ومعها مالا يحصى عدده من النظر الا أن يكون عنى بالنظرة المحرمة، والنظر الى الشعر والمجاسد وما تخفيه الجلابيب مما يحل للزوج والولي ويحرم على غيرهما

ودعا مصعب بن الزبير الشعبي وهو في قبة له مجالة بوشي معه امرأته فيها فقال ياشعبي من معي فى هذه القبة ؟ فقال لا أعلم أصلح الله الامير. فرفع السجف فاذا هو بعائشة ابنة طلحة والشعبى فقيه أهل العراق وعالمهم ولم يكن يستحل أن ينظر ان كان النظر حراما .

ورأى معاوية كاتباً له يكلم جارية لامرأته فاختة ابنة قرظة فى بعض طرق

داره ثم خطب ذلك الكاتب تلك الجارية فزوجها منه فدخل معاوية الى فاختة وهي متحشدة فى بقية عطر لعرس جاريتها فقال : هوني عليك يا ابنة قرظة فانى أحسب الابتناء قد كان منذ حين . ومعاوية أحد الأئمة فلما لم يقع عنده ما رأى من الكلام موقع يقين ، وانما حل محل ظن وحسبان ، لم يقض به ولم يوجبه ولو أوجبه لحد عليه . فكان معاويه يؤتى بالجارية فيجردها من ثيابها بحضرة جلسائه ويضع القضيب على ركبها ثم يقول انه لمتاع لو وجد متاعاً ثم يقول لصعصعة بن صوحان خذها لبعض ولدك فانها لا تحل ليزيد بعد أن فعلت بها ما فعلت . ولم يكن يعدم من الخليفة ومن بمنزلته فى القدرة والتأني أن يقف على رأسه جارية تذب عنه وتروحه وتعاطيه اخرى في مجلس عام بحضرة الرجال

فمن ذلك حديث الوصيفة التى اطلعت في كتاب عبد الملك بن مروان الى الحجاج وكان يُسره . فلما فشا ما فيه رجع على الحجاج باللوم وتمثل بهذا :

ألم تر أن وشاة الرجال   لا يتركون أديماً صحيحا
فلا تفش سرك الا اليك   فان لكل نصيح نصيحا

ثم نظر فوجد الجارية كانت تقرأ فنمت عليه

ومن ذلك حديثه حين نعس فقال للفرزدق وجرير والاخطل : من وصف نعاسا بشعر وتمثل نصيبا فيه ويحسن التمثيل فهذه الوصيفة له . فقال الفرزدق :

رماه الكرى فى الرأس حتي كأنه   أميم جلاميد تركن به وقرا

فقال : شدختني ويلك يافرزدق ؟ فقال جرير:

رماه الكرى فى الرأس حتى كأنه   يرى فى سواد الليل فسله سفرا [1]

فقال : ويلك تركتني مجنوناً . ثم قال يا أخطل فقل . فقال :

رماه الكرى فى الرأس حتى كانه   نديم تروى بين ندمانه خمرا

---

(١) كذا الاصل وليس البيت فى ديوان جرير

فقال : أحسنت ، خذ اليك الجارية

ثم لم يزل للملوك والاشراف اماء يختلفن في الحوائج ، ويدخلن فى الدواوين ونساء يجلسن للناس ، مثل خالصة جارية الخيزران ، وعتبة جارية ريطة ابنة أبى العباس ، وسكر وتركية جاريتي أم جعفر ، ودقاق جارية العباسة ، وظلوم وقسطنطينية جاريتي أم حبيب ، وامرأة هارون بن معبوبة ، وحمدونة أمة نصر ابن السندي بن شاهك . ثم كن يبرزن للناس أحسن ما كن وأشبه مايتزين به ، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب . ولقد نظر المأمون الى سكر فقال : أحرة أنت أم مملوكة ؟ قالت لا أدري اذا غضبت علي ام جعفر قالت أنت مملوكة واذا رضيت قالت أنت حرة . قال فاكتبي اليها الساعة فاسأليها عن ذلك . فكتبت كتاباً وصلته بجناح طائر من الهوى[1] كان معها أرسلته تعلم ام جعفر ذلك ، فعلمت أم جعفر ما أراد فكتبت اليها : أنت حرة . فتزوجها على عشرة آلاف درهم ثم خلا بها من ساعتها فواقعها وخلّى سبيلها وأمر بدفع المال اليها

والدليـل على أن النظر الى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك فلو كان حراما وهى شابة لم يحل اذا غنت ولكنه أمر أفرط فيه المتعمدون حد الغيرة الى سوء الخلق ، وضيق العطن[2] فصار عندهم كالحق الواجب

وكذلك كانوا لا يرون بأساً أن تنتقل المرأة الى عدة أزواج لا ينقلها عن ذلك الا الموت مادام الرجال يريدونها ، وهم اليوم يكرهون هذا ويستسمجونه في بعض ، ويعافون المرأة الحرة اذا فارقت زوجاً واحداً ، ويلزمون من خطبها العار ، ويلحقون به اللوم ، ويعيرونها بذلك . ويتحظون الامة وقد تداولها من لا يحصى

(١) كذا الاصل (٢) في الاصل « وضيق الفطنة »

عدده من الموالي . فمن حسّن هذا في الاماء وقبحه فى الحرائر ؟ ولم لم يغاروا في الأماء وهن امهات الاولاد وحظايا الملوك وغاروا على الحرائر؟

ألا ترى أن الغيرة اذا جاوزت ما حرم الله فهو باطل ، وأنها بالنساء لضعفهن أولع حتى يغرن على الظن والحلم فى النوم ، وتغار المرأة على أبيها وتعادى امرأته وسريّته . ولم يزل القيان عند الملوك من العرب والعجم على وجه الدهر : وكانت فارس تعد الغناء أدبا ، والروم فلسفة . وكانت في الجاهلية الجرادتان لعبد الله بن جدعان. وكان لعبد الله بن جعفر الطيار جوار يتغنين وغلام يقال له بديع يتغنى فعابه بذلك الحكم بن مروان فقال : وما عليّ أن آخذ الجيد من أشعار العرب وألقيه الى الجواري فيترنمن به وينشدنه بحلوقهن ونغماتهن

وسمع يزيد بن معاوية الغناء . واتخذ يزيد بن عبد الملك حبابة وسلامة وأدخل الرجال عليهما للسماع ، فقال الشاعر فى حبابة :

اذا ما حن مزهرها اليها وحنت دونه أذن الكرام
واصغت نحوه الآذان حتى كأنهم وما ناموا نيام

وقال فى سلامة :

ألم ترها والله يكفيك شرها اذا طربت في صوتها كيف تصنع
ترد نظام القول حتى ترده الى صلصل من حلقها يترجع

وكان يسمع فاذا طرب شق برده ثم يقول : أطير ! فتقول حبابة : لا تطر فان بنا اليك حاجة

ثم كان الوليد بن يزيد المتقدم في اللهو والغزل. والملوك بعد ذلك يسلكون على هذا المنهاج وعلى هذا السبيل الاول

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قبل أن تناله الخلافة يتغنى فمما يعرف من غنائه :

ألما صاحبيَّ نزر سعاداً لقرب مزارها ودعا البعادا

وله :

عاود القلبُ سعادا فقلي (١) الطرفُ السهادا

ولا نرى بالغناء بأساً اذ كان أصله شعراً مكسواً نغماً فما كان منه صدقا فحسن ، وما كان منه كذبا فقبيح وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « ان من الشعر لحكمة » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « الشعر كلام ، فحسنه حسن وقبيحه قبيح »

ولا نرى وزن الشعر ازال الكلام عن جهته ، فقد يوجد ولا يضره ذلك ، ولا يزيل منزلته من الحكمة ، فاذا وجب أن الكلام غير محرم فان وزنه وتقفيته لا يوجبان تحريمه لعلة من العلل ، وان الترجيع له أيضاً لا يخرجه الى حرام ، وان وزن الشعر وكتاب العروض من كتاب الموسيقى وهو من كتاب حد النفوس لا تحده الالسن بحد مقنع ، وقد يعرف بالهاجس كما يعرف بالاحصاء والوزن ، فلا وجه لتحريمه ، ولا أصل لذلك فى كتاب الله تعالى ، ولا سنة نبيه عليه الصلاة والسلام

فان كان انما يحرم لانه يلهي عن ذكر الله فقد نجد كثيراً من الاحاديث والمطاعم والمشارب والنظر الى الجنان والرياحين ، واقتناص الصيد ، والتشاغل بالجماع وسائر اللذات ، تصد وتلهي عن ذكر الله تعالى ونعلم أن قطع الدهر بذكر الله ممن أمكنه ذلك أفضل . الا أنه اذا أدى الرجل الفرض فهذه الامور كلها له مباحة ، واذا قصر عنه يلزمه المأثم ، ولو سلم من اللهو عن ذكر الله أحد لسلم الانبياء عليهم السلام . هذا سليمان بن داد عليه السلام ألهاه عرض الخيل عن الصلاة حتى غابت الشمس فعرقبها وقطع رقابها

---

(١) في الاصل « فعلا »

وبعد فان الرقيق تجارة من التجارات: تقع عليه المساومة والمشاراة بالثمن، ويحتاج البائع والمبتاع الى أن ينتقيا (١) العلق ويتأملاه تأملا بينا يجب فيه خيار الرؤية المشترط في جميع البياعات ، وان كان لا يعرف مبلغه بكيل ولا وزن ولا عدد ولا مساحة فقد يعرف بالحسن والقبح ، ولا يقف على ذلك أيضا الا الثاقب في نظره ، الماهر في بصره ، الطَّب بصناعته . فان أمر الحسن أدق وأرق من أن يدركه كل من أبصره . وكذلك الامور الوهمية لا يقضي عليها بشهادة ابصار الاعين ، ولو قضي عليها بها كان كل من رآها يقضى، حتى النعم والحمير يحكم فيها لكل بصير العين يكون فيها شاهدا وبصيرا للقلب ومؤديا الى العقل، ثم يقع الحكم من العقل عليها

وأنا مبين لك الحسن . هو التمام والاعتدال ، ولست أعني بالتمام تجاوز مقدار الاعتدال كالزيادة في طول القامة ، وكدقة الجسم ، أو عظم الجارحة من الجوارح ، أو سعة العين أو الفم مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخلق ، فان هذه الزيادة متي كانت فهي نقصان من الحسن وان عدت زيادة في الجسم . والحدود حاصرة لامور العالم ، ومحيطة بمقاديرها الموقوفة لها ، فكل شيء خرج عن الحد في خلق أو خلق - حتى في الدين والحكمة اللذين هما أفضل الأمور - فهو قبيح مذموم

وأما الاعتدال فهو وزن الشيء لا الكمية ، والكون كون الارض لا استواؤها ووزن النفوس في أشباه أقسامها ، ووزن خلقة الانسان اعتدال محاسنه والا يفوت شيء منها شيئاً، كالعين الواسعة لصاحب الانف الصغير الافطس، والانف العظيم لصاحب العين الضيقة ، والذقن الناقص والرأس الضخم والوجه الفخم لصاحب البدن المجدع النضو ، والظهر الطويل لصاحب الفخذين القصيرين ،

(٢) في الاصل « ينشفا »

والظهر القصير لصاحب الفخذين الطويلين . وكسعة الجبين بأكثر من مقدار أسفل الوجه

ثم هذا أيضا وزن الابنية ، وأصناف الفرش والوشى واللباس ، ووزن القنوات التي تجرى فيها المياه ، وانما نعنى بالوزن الاستواء فى الخرط والتركيب . فلا بد لما [1] لا يمنع الناظر من النظر الى الزرع والفرش والبنفسج فى خضرته والاستنشاق من روائحه ، ويسمى ذلك كله له حلا ما لم يمد [2] له يدا فاذا مد يدا الى مثقال حبة من خردل بغير حقها فعل ما لا يحل ، وأ كل ما يحرم عليه . وكذلك مكالمة القيان ، ومفاكهتهن ، ومغازلتهن ، ومصافحتهن للسلام ، ووضع اليد عليهن للتقليب . والنظر حلال مالم يشب ذلك مايحرم. وقد استثنى الله تبارك وتعالى اللمم فقال « والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ، ان ربك واسع المغفرة » قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ـ وسئل عن تأويل هذه الآية فقال ـ : اذا دنا الرجل من المرأة فان تقدم ففاحشة وأن تأخر فلمم . وقال غيره من الصحابة : القُبلة واللمس . وقال آخرون الاتيان فيما دون الفرج ، وكذلك قال الاعرابى ـ حين سئل عما نال من عشيقته فقال ـ : ما أقرب أحل الله مما حرم الله !

فان قال قائل فيما روى من الحديث « فرقوا بين أنفاس الرجال والنساء » وقال « لا يخلُ رجل بامرأة فى بيت وان قيل حموها ، ألا ان حموها الموت » ان فى الجمع بين الرجال والقيان مادعا الى الفسق والارتباط والعشق مع ما ينزل بصاحبه من الغلمة التي تضطر الى الفجور وتحمل على الفاحشة ، وان اكثر من يحضر منازل القيان انما يحضر لذلك لا لسماع ولا ابتياع

قلنا ان الاحكام انما تقع على ظاهر الامور ولم يكلف الله العباد الحكم على

(١) كذا الاصل (٢) في الاصل « كله له حل مايمد »

الباطن والعمل على النيات فيقضى للرجل بالاسلام بما يظهر منه ولعله ملحد فيه ، ويقضى أنه لابيه ولعله لم يلده الاب الذي ادعى اليه قط الا أنه مولود على فراشه مشهور بالانتماء اليه ، ولو كاف من يشهد لرجل بواحد من هذين المعنيين على الحقيقة لم تقم عليه شهادة . ومن يحضر مجالسنا لا يظهر نسباً مما ينسبونه اليه ولو أظهر ثم أغضينا له عليه لم يلحقنا فى ذلك اثم

والحسب والنسب الذي بلغ به القيان الأثمان الرغيبة انما هو لهواء ، ولو اشترى على مثل شرى الرقيق لم تجاوز الواحدة منهن ثمن الراس الساذج ، فاكثر من بالغ في ثمن جارية فبالعشق بالغ فيها ، ولعله قد كان ينوي في أمرها الريبة ويجد هذا أسهل سبيلا الى اشفاء غليله ، ثم تعذر ذلك عليه فصار الى الحلال وان لم ينوه ، وتعرّف فضله فباع المتاع ، وحل العقد ، وأثقل ظهره بالعيبة ، حتى ابتاع الجارية . ولا يعمل عملا ينتج خيراً غير اغرابه بالقيان ، وقيادته عليهن . فانه لايتحمل الامر الا وغايته فيهن العشق ، فيعوق عن ذلك ضبط الموالي ، ومراعاة الرقباء ، وشدة الحجاب ، فيضطر العاشق الى الشراء ، ويحل به الفرح ويكون الشيطان المدحور

والعشق داء لا يملك دفعه ، كما لا يستطاع دفع عوارض الادواء إلا بالحِمْية ، ولا يكاد ينتفع بالحمية مع ما يولد الاغذية ويزيد فى الطبائع بالازدياد في الطعم ، ولو أمكن أحداً أن يحتمى من كل ضرر ، ويقف عن كل غذاء ، للزم ذلك المتطبب فى آفات صحته ، ونحل جسمه ، وضوى لحمه ، حتى يؤمر بالتخليط ، ويشار عليه بالعناية في الطيبات . ولو ملك أيضاً صرف الاغذية ، واحترس بالحمية ، لم يملك ضرر تغيير الهواء ، ولا اختلاف الماء

وأنا واصف لك العشق لتعرف حده : هو داء يصيب الروح ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، كما ينال الروحَ الضعف من البطش والوهن في المرء ينهكه . وداء

العشق وعمومه في جميع البدن بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم ، وصعوبة دوائه يأتي من قبل اختلاف علله ، وانه يتركب من وجوه شتى كالحمى التي تعرض مركبة من البرد والبلغم فمن قصد لعلاج أحد الخلطين كان ناقصا من دوائه زائداً في داء الخلط الآخر ، وعلى حسب قوة أركانه يكون ثبوته وابطاؤه في الانحلال. فالعشق يتركب من الحب والهوى والمشاكلة والالف. وله ابتداء في المصاعدة ، ووقوف على غاية ، وهبوط في التواليد إلى غاية الانحلال ووقت الملال

والحب اسم واقع على المعنى الذي رسم به لا يعتبر له غيره ، لانه قد يقال المرء يحب الله وان الله عز وجل يحب المؤمن . وان الرجل يحب ولده ، والولد يحب صديقه وبلده وقومه ويحب على أي جهة يريد ولا يسمى ذلك عشقا. فنعلم حينئذ أن اسم الحب لا يكتفى به في معنى العشق حتى تضاف اليه العلل الاخرى الا أنه ابتداء العشق ثم يتبعه الهوى فربما وافق الحق والاختبار ، وربما عدل عنهما ، وهذه سبيل الهوى في الاديان والبلدان وسائر الامور ، ولا يميل صاحبه عن حجته واختياره فيما يهوى ، ولذلك قيل : عين الهوى لا تصدق ! وقيل : حبك الشيء يعمي ويصم ، يتخذون أديانهم أربابا لاهوائهم ، وذلك أن العاشق كثيرا ما يعشق غير النهاية في الجمال ، ولا الغاية في الكمال ، ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة. ثم اذا سئل عن حجته في ذلك لم تقم له حجة . ثم قد يجتمع الحب والهوى ، ولا يسميان عشقاً فيكون ذلك في الولد والصديق والبلد والصنف من اللباس والفرش والدواب فلم ير أحد منهم يسقم بدنه ولا يتلف روحه من حب ولده ولا بلده وان كان قد يصيبه عند الفراق لوعة واحتراق . وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن قد تلف وطال جهده وضناه بداء العشق

فعلم انه اذا أضيف الى الحب والهوى المشاكلة - أعني مشاكلة الطبيعة -

أى حب الرجال النساء وحب النساء الرجال المركب في جميع الفحول والاناث من الحيـوان صار ذلك عشقا صحيحا . وان كان ذلك عشقا من ذكر لذكر فليس الا مشتقا من هذه الشهوة والا لم يسم عشقا اذا فارقت الشهوة . (١) ثم لم يره ليكون مستحكما عند أول لقياه حتى يعقد لذلك الالف ، وتغرسه المواظبة في القلب ، فينبت كما تنبت الحبة في الارض حتى يستحكم ويشتد ويثمر وربما صار لها كالجذع السحوق والعمود الصلب الشـديد ، وربمـا انعقف فصار فيه بوار الأصل ، فاذا اشتمل على هذه العلل صار عشقا تاما . ثم صارت قلة العيان تزيد فيه ، وتوقد ناره ، والانقطاع يسعره ؛ حتى يُدخل العقل ، وينهك البدن ، ويشتغل القلب عن كل نافعة ، ويكون خيال المعشوق نصب عـين العاشق ، والغالب على فكرته ، والخاطر في كل حالة على قلبه

واذا طال العهد واستمرت الأيام نقص على الفرقة واضمحل على المطاولة ، وان كانت كلومه وندوبه لاتكاد تعفو آثارها ولا تدرس رسـومها ، فكذلك الظفر بالمعشوق يسرع في حل عشقه . والعلة في ذلك أن بعض الناس أسرع الى العشق من بعض لاختلاف طبائع القلوب في الرقة والقسوة ، وسرعة الالف وإبطائه ، وقوة الشهوة وضعفها . فما يظهر المعشوق عشقه الاعداه بدائه ، ونكت في صدره ، وشغف فؤاده . وذلك من المشاكلة واجابة بعض الطبائع بعضا ، وتوقان بعض الانفس الى بعض ، وتقارب الارواح ، كالنائم يرى آخرينام ولانوم به فينعس ، وكالمتثائب يراه من لاتثاؤب به فيفعل مثل فعله قسرا من الطبيعة ، وقلما يكون عشق بين اثنين يستويان فيه الا عن مناسبة بينهما فى الشبه : فى الخلق والخلق وفى الظرف أو فى الهوى أو الطباع . ولذلك ماترى الحسَن يعشق القبيح ، والقبيح يعشق الحسن ، ويختار الاقبح على الأحسن ، وليس يرى

(١) لعل هنا نقصاً

الاختيار في غير ذلك فيتوهم الغلط عليه لـكنه لتعارف الارواح وازدواج القلوب

ومن الآفة عشق القيان على كثرة فضائلهن وسكون النفوس اليهن ولأنهن يجمعن للانسان من اللذات مالا يجتمع فى شيء على وجه الارض، واللذات كلها انما تكون بالحواس، والمأكول والمشروب حظ حاسة الذوق ولا يشركها فيه غيرها، فلو أكل الانسان المسك الذى هو حظ الأنف وجده بشعا واستقذره، اذ كان دما جامدا، ولو تنسم أرواح الاطعمة غير الطيبة كالفواكه وما أشبهها عند انقطاع الشهوة أو ألح بالنظر الى شيء من ذلك عاد ضررا، ولو أبلى سمعه كل طيب وطيّب لم يجد له لذة، فاذا جاء باب القيان اشترك فيه ثلاث من الحواس وصار القلب لها رابعا: فللعين النظر الى القينة الحسناء والمشهية اذ كان الحذق والجمال لا يكادان يجتمعان لمستمتع ومرتع [1]، وللسمع منها حظ الذى لامؤنة عليه ولا تطرب آلته الا اليه، وللمس فيها الشهوة والحنين الى الباه. والحواس كلها رواد للقلب، وشهود عنده، واذا رفعت القينة عقيرة حلقها تغني حدّق اليها الطرف، وأصغى نحوها السمع، والقلب القلب اليها الملاك [1]، فاستبق السمع والبصر، أيهما يؤدى للقلب ما أفاد منها قبل صاحبه، فيتوافيا عند حبة القلب فيفرغان ماوعياه فيتولد منه مع السرور حاسة اللمس فيجتمع له في وقت واحد ثلاث لذات لاتجتمع له في شيء قط، ولم تؤد اليه الحواس مثلها. فيكون في مجالسته للقينة أعظم الفتنة لأنه روى فى الاثر «اياكم والنظرة فانها تزرع فى القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة» فكيف بالنظر والشهوة اذا صاحبهما السماع وتكانفتهما المغازلة

ان القينة لاتكاد تخالص فى عشقها، ولا تناصح فى ودها، لانها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين ليقعوا فى أنشوطتها [2].

فاذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ، وداعبته بالتبسم، وغازلته فى أشعار الغناء،

---

(١) كذا الاصل وفيه تحريف (٢) في الاصل « لفتحوا في نشوطتها

ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق الى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه. فاذا أحست بأن سحرها قد تقلب فيه ، وانه قد تغلغل [١] فى الشرك ، تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذى بها أكثر مما به منها. ثم كاتبته تشكو اليه هواها ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعها وبلت السحاء بريقها ، وأنه سبحها وشجوها فى فكرتها وضميرها فى ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ، ولا تؤثر أحدا على هواه ، ولا تنوى انحرافا عنه ، ولا تريده لماله ، بل لنفسه . ثم جعلت الكتاب فى سدس طومار ، وختمته بزعفران ، وشدته بقطعه زير ، وأظهرت سره عند مواليها ليكون المغرور أوثق بها ، وألحت فى اقتضاء جوابه ، فان أجيبت عنه ادعت أنها قد صيرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته ، وأنشدت :

وصحيفة تحكى الضميـ ر مليحة نغماتها
جاءت وقد فرح الفؤا د لطول ما استبطأتها
فضحكت حين رأيتها وبكيت حين قرأتها
عيني رأت ما أنكرت فتبادرت عبراتها
أظلوم نفسى فى يد يك حياتها ووفاتها

ثم تغنت حينئذ بـ

ان كتاب الحبيب ندمانى محدثنى تارة وريحانى
أضحكنى فى الكتاب أوله ثم تمادى به فأبكانى

ثم تجنت عليه الذنوب ، وتغايرت على أهله ، ووصمته النظر الى صواحبها ، وسقته انصاف أقداحها ، وجمشته بعضوض تفاحها [٢] ، ومنحته من ريحانها ،

(١) فى الاصل « تغفل »
(٢) كذا الاصل

وزودته عند انصرافه خصلة شعرها ، وقطعة من مرطهـا ، وشظية من مضرابها.
وأهدت اليه فى النيروز تكة وسكرا ، وفى المهرجان خاتماً وتفاحا، ونقشت على
خاتمها اسمه ، وأبدت عند العثرة اسمه[١] ، وغنته اذا رأته :

نظر المحب الى الحبيب نعيم وصدوده خطر عليه عظيم

ثم أخبرته أنها لاتنام شوقا اليه ولاتتهنأ بالطعام وجداً به ولا تمل - اذا غاب -
الدموعَ فيه ، ولا ذكرته الا تنغصت ، ولا هتفت باسمه الا ارتاعت ، وانها قد
جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه . وتنشد عند موافاة اسمه بيت المجنون :

وأهوى من الأسماء ما وافق اسمها وأشبهه أو كان منه مدانيا

وعند الدعاء به قوله :

وداع دعا اذ نحن بالخيف من مِنى فهيج أحزان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلي غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان فى صدري

وربما قادها هذا التموية الى التصحيح ، وربمـا شاركت صاحبها فى البلوى
حتى تأتى الى بيته فتمكنه من القبلة فمـا فوقها ، وتفرشه نفسها ان استحل
ذلك منها

وربما جحدت الصناعة لترخص عليه ، وأظهرت العلة والتألب على الموالى ،
واستبىاعت من السادة ، وادعت الحرية احتيالا لان يملكها ، واشفاقاً عليـه أن
يجتاحه كثرة ثمنهـا. ولا سيما اذا صادفته حلو الشمائل ، رشيق الاشارة ، عذب
اللفظ ، دقيق الفهم ، لطيف الحس ، خفيف الروح . فان كان يقول الشعر
ويتمثل به أو يترنم كان أحظى له عندها

وأكثر أمرها قلة المناصحة، واستعمال الغدر والحيلة فى استنطاف[٢] مايحويه
المربوط والانتقال عنه . وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أوأربعة على أنهم

---

(١) كذا الاصل

(٢) كذا الاصل ، ولعله « استنزاف »

يتحامون الاجتماع ، ويتغايرون عند الالتقاء ، فتبكي لواحد بعين ، وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطى واحدا سرها والآخر علانيتها ، وتوهم أنها له دون الآخر ، وان الذى يظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين ، وحرصها علي الخلوة به دونهم ، فلو لم يكن لابليس شرك يقتل به ، ولا علم يدعو اليه ، ولا فتنة يستهوى بها الا القيان لكفاه . وليس هذا بذم لهن ولكنه من فرط المدح ، وقد(١) جاء في الاثر « خير نسائكم السواحر الخلابات » ، وليس يحسن هاروت وماروت وعصا موسي وسحرة فرعون الا دون ما تحسنه القيان

ثم اذا منعهن الزنا غلبه عليهن مخارج بيوت الكشاخنة ترميهن في حجور الزناة ، ثم هن أمهات أولاد من قد بلغ بالحب لهن ان غفروا لهن كل ذنب ، وأغضوا منهن علي كل عيب . واذا كن فى منزل رجل من السوقة عذرتهن ، فاذا انتقلن الى منازل الملوك زال العذر ، والسبب فيه واحد ، والعلة سواء

وكيف تسلم القينة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وانما تكتسب الاهواء ، وتتعلم الالسن والاخلاق بالمنشأ ، وهى انما تنشأ من لدن مولدها الى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والاخانيث ، وبين الخلعاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه الى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة ، وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعدا يكون الصوت فيما بين البيتين الى أربعة أبيات عدد مايدخل في ذلك من الشعر اذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله الا عن غفلة ، ولا ترهيب [عن]عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، وانما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة . ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها

(١) فى الاصل « وان »

منكبة عليها تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش ، وانشادهم مراودة ، وهي مضطرة الى ذلك في صناعتها لانهـا ان جفتها تفلتت وان أهملتها نقصت وان لم تستفد منهـا وقفت ، وكل واقف فالى نقصان أقرب ، وانما فرق مابين أصحاب الصناعات وبين من لا يحسنها التزيد فيها والمواظبة عليها ،فهي لو أرادت الهدى لم تعرفه ، ولو بغت الغفلة لم تقدر عليها ، وان ثبتت حجة أبي الهذيل فيما يجب على المتفكر زال عنها خاصة ، لان فكرها وقلبها ولسانها وبدنها مشاغيل بما هي فيه وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن بلي بمجالستها عليه وعليها

ومن فضائل الرجل منا أن الناس يقصدونه في رحلة بالرغبة كما يقصد بها للخلفاء والعظماء ، فيزار ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يحمل على الصلة ، ويهدى له ولا تقتضى منه الهدية ، وتبيت العيون ساهرة ، والدموع[1] ساجمة ، والقلوب واجفة ، والاكباد منصدعة ، والاماني واقفة علي ما يحويه ملكه وتضمه يده ، مما ليس في جميع ما يباع ويشترى ويستفاد ويقتني ، بعد العقد النفيسة[2] . فمن يبلغ شيئاً من الثمن ما بلغت حبشية جارية عون مائة الف دينار وعشرين الف دينار ، ويرسلون الى بيت مالكها بصنوف الهدايا من الاطعمة والأشربة ، فاذا جاءوا حصلوا على النظر ، وانصرفوا بالحسرة ، ويجتنى مولاها ثمرة ما غرسوا ، ويتملى به دونهم ، ويكفى مؤونة جواريه

فالذي يقاسيه الناس من عيلة العيال ، ويفكرون فيه من كثرة عددهم ، وعظيم مؤنتهم وصعوبة خدمتهم ، [هو] عنه بمعزل ، لا يهتم بغلاء الدقيق ولا عوز السويق ، ولا عزة الزيت ، ولا فساد النبيذ . قد كفى حسرته اذا نزر ، والمصيبة فيه اذا حمض ، والفجيعة به اذا انكسر ، ثم يستقرض اذا اعسر ولا يرد ، ويسأل الحوائج فلا يمنع ، ويلقى ابدا بالاعظام . يكني اذا نودى ، ويفدى

(١) في الاصل : والعيون (٢) كذا في الاصل

اذا دعي ، ويجي بطريف الاخبار، ويطلع على مكنون الاسرار ،ويتغاير الربطاء عليه ، ويتبارون في بره ، ويتناجون في وده ، ويتفاخرون بايثاره

ولا نعلم هذه الصفة الا للخلفاء ، [وهم مع ذلك] يعطون فوق مايأخذون ، وتحصل بهم الرغائب ، و يدرك منهم الغنى . والمقين يأخذ الجواهر ويعطي العرض ، ويفوز بالعين ويعطي الاثر ، ويبيع الريح الهابة بالذهب الجامد وفلذ اللجين والعسجد . وبين المرابطين و بين مايريدون منه خرط القتاد ، لان صاحب القيان لو لم يترك اعطاء المربوط سؤله عفة ونزاهة لتركه حذقا واختيارا ، وشحا على صناعته ، ودفعا عن حريم ضيعته . لان العاشق متى ظفر بالمعشوق مرة واحدة نقص تسعة أعشار عشقه ، ونقص من بره ورفده بقدر مانقص من عشقه

فما الذي يحمل المقين على أن يهبك جاريته ، ويكسر وجهه ، ويصرف الرغبة عنه . ولولا أنه مثل في هذه الصناعة الكريمة الشريفة لم يسقط الغيرة عن جواريه ، ويعنى بأخبار الرقباء ، ويأخذ اجرة المبيت، ويتناوم قبل العشاء،ويعرض عن الغمزة ، ويغفر القبلة ، ويتغافل عن الاشارة ، ويتعامى عن المكاتبة ، ويتناسى الجارية يوم الزيارة ، ولا يعاتبها على المبيت ، ولا يفض ختام سرها ، ولا يسألها عن خبرها فى ليلها ، ولا يعبأ بأن تقفل الأبواب و تسدد الحجاب ، ويعد لكل مربوط عدة على حدة ، ويعرف مايصلح كل واحد منهم كما يميز التاجر أصناف تجارته ، فيسعرها على مقاديرها ، ويعرف صاحب الضياع أراضيه بمزارع الخضرة والحنطة والشعير . فمن كان ذا جاه من الربطاء اعتمد على جاهه ، وسأله الحوائج ، ومن كان ذا مال ولا جاه له استقرض منه بلا عينة ، ومن كان من السلطان بسبب كفيت به عادية الشرط والاعوان ، وأعلنت فى زيارته الطبول والسراني [1] مثل سلمة الفقاعي ، وحمدون الصحناوي ، وعلى الغامي ، وحجر النور ،

---

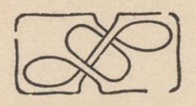
(١) كذا الاصل

وقفحة، وابن دجاجة ، وحفصويه، وأحمد شعرة ، وابن المجوسي ، وابراهيم العلام فاى صناعة على وجه الارض أشرف منها ، ولو يـعلم هؤلاء المسمون فرق ما بين الحلال والحرام لم ينسبوا الى الكشح أهلها لانه قد يجوز أن تباع الجارية من الملىء فيصيب منها وهو في ذلك ثقة ، ثم يرتجعها صاحبها بأقل مما باعها به فيحصل له الربح ، أو يزوج ممن يثق به ، ويكون قصده للمتعة ، فهل على مزوجه من حرج ، وهل يفر احد من سعة الحلال الا الخائن الجاهل ، وهل قامت الشهادة بزنا قط فى الاسلام على هذه الجهة

***

هذه الرسالة التي كتبناها من الرواة منسوبة الى من سمينا في صدرها ، فان كانت صحيحة فقد أدينا منها الرواية ، والذين كتبوها أولى بما تقلدوا من الحجة فيها ، وان كانت منحولة فمن قبل الطفيليين اذ كانوا قد أقاموا الحجة فى اطراح الحشمة والمرتكبين ، ليسهلوا على المقينين ما صنعه المقرفون . فان قال قائل ان لها فى كل صنف من هذه الثلاثة الاصناف حظاً وسبباً فقد صدق

وبالله سبحانه التوفيق ، ومنـه الهداية الى سواء الطريق * والحمد لله وحده وكفى .



تمت الرسالة فى القيان من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعون الله تعالى ومَنه وتوفيقه وتأييده ومشيئته . والله سبحانه المسئول فى التجاوز عن الخطأ واللغو فى نقل ذلك

تصحيح

ص	سطر	
١٤	٢١	هذا السطر يجب أن يكون متصلا بالسطر الذي في أول الصفحة التالية
٢٨	١٧	أحمد الله حمدا جديدا أحمده * وفي التوراة « احمدوا الله حمدا جديدا حمده »
٢٩	٢ ـ ٣	أحرث الجبال والشعب وآخذ بالعرب * صوابه « أخرب الجبال والشعاب وآخذ بالعور »
٣٠	١٠	استثاره * صوابه استاثره
٣١	١٣ ـ ١٤	من الخلة (بالضم) والاختلال لامن الخلة * والصواب من الخلة (بالفتح) والاختلال لامن الخلة (بالضم)
٣٣	١١	بشرط التأديب * لعله بشرف التاديب
٣٥	٤	محبوسة بحسبه * صوابه محبوسة بحبسه
٣٦	١٣	فكنا * لعله « لسكنا »
٤٢	١٢	وتحدف الشابورتين * لعله « وتحذف الشاربين »
٤٥	١٨ و ٢٠	(١) * صوابه (٢)
٤٧	١٣	ضفة * صوابه « ضمة »
٥٤	١٤	موجبة * صوابه « موجبة »
٦٥	١٤	ما أقرب احل * صوابه « ما أقرب ما أحل »
٦٦	٦	لهواء * صوابه « الهوى » وفي سطر ٩ اشفاء صوابه « شفاء »
٦٦	١٤	الفرح صوابه « الفرج »
٦٨	٢٠	ولذلك ما ترى * صوابه « ولذلك ترى »
٧٠	٨	بقطمه * صوابه « بقطعة »

TO

MR. JULIUS ROSENWALD

IN ADMIRATION AND GRATITUDE